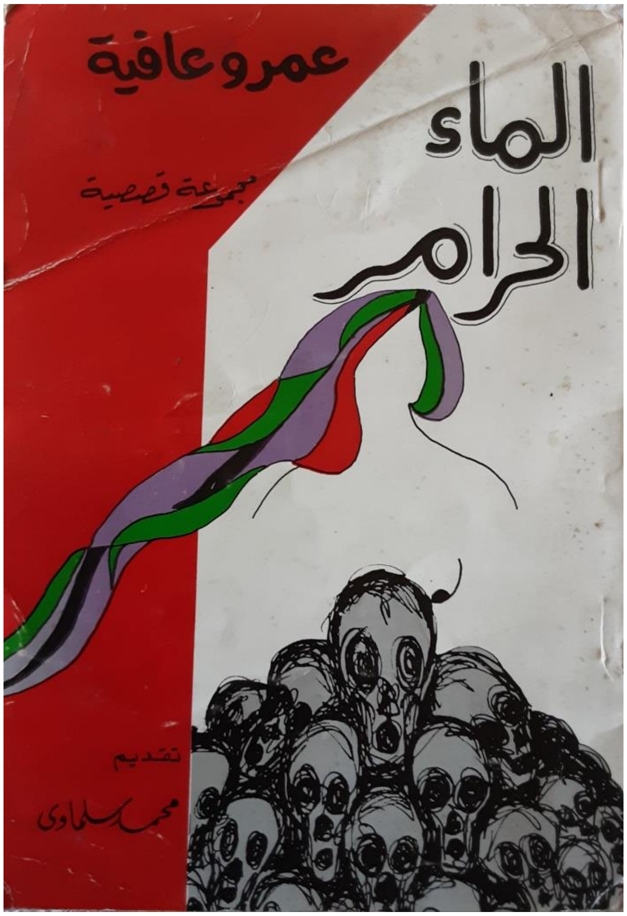

الماء الحرام

مجموعة قصصية

عمرو عافية

تقديم

محمد سلماوي

قمر جديد

بقلم: محمد سلماوي

مقدمة:

وصلني خطاب من الهيئة المصرية العامة للكتاب يقول بأنها تقوم بتنظيم مسابقة سنوية جديدة لجائزة الإبداع الفكري بين الشباب العربي باسم الدكتورة سعاد الصباح في خمسة مجالات: هي الشعر والقصة القصيرة والمسرحية والرواية والدراسات الإنسانية .. «ويشرفنا أن تقبلوا بأن تكونوا أحد أعضاء لجنة تحكيم الجائزة، ولا أظنني في حاجة إلى التأكيد على أن ما ترمزون إليه في مجال الإبداع الفكري وإسهامكم في هذه الخدمة العامة سيعني الكثير بالنسبة للأجيال الشابة من المبدعين العرب».

ومع الخطاب تم إرسال 36 مظروفًا مغلقًا تقدم بها أصحابها للمسابقة وطلب مني في الخطاب «فحصها وتقويمها وترتيبها تنازليًا من الأول حتى العاشر .. ولأغراض السرية فقد تم رفع أسماء أصحاب هذه الأعمال».

ورغم سعادتي بهذا الاختيار، فقد اعتذرت للهيئة عن التحكيم بسبب مشغولياتي، ولأني لا أملك الوقت لقراءة «وفحص وتقويم وترتيب» ما قد يكون في النهاية المحاولات الأولى لشباب مجتهد في مجال الكتابة الأدبية.

لكن الهيئة عاودت الاتصال بي وعرضت عليّ أن أتولى التحكيم في مجال القصة القصيرة التي لن تستغرق بطبيعة الحال نفس الوقت الذي تستغرقه قراءة المسرحية أو الرواية فاضطررت للموافقة وأنا أتخوف بيني وبين نفسي مما ينتظرني.

وما أن بدأت قراءة بعض الأعمال المقدمة للمسابقة حتى تحققت مخاوفي: الكتابة بدائية ركيكة، وفهم الكاتب للقصة القصيرة غير ناضج، فمعظم المتقدمين يتعاملون مع هذا القالب الأدبي باعتباره حدوته صغيرة وليس كقالب أدبي له خصائصه وبناءه الخاص وقواعده الفنية.

ثم فجأة وصلت إلى مجموعة قصصية وجدتني ألتهمها التهامًا وأعود لقراءتها بمجرد أن فرغت منها مرة وثانية وثالثة مستمتعًا بها استمتاعًا كبيرًا .. فهنا وجدت البناء الفني السليم وهنا وجدت الفهم

الواعي لقالب القصة القصيرة وهنا وجدت أيضًا الجرأة في اختيار الموضوع والحداثة في التناول، فهذه مجموعة قصصية تعبر عن واقع معاصر ولا يمكن أن يكتبها إلا شاب ليس فقط على درجة كبيرة من الموهبة وإنما أيضًا على سعة اطلاع وثقافة فنية عالية.

وبعد أن انتهيت من «قراءة وفحص وتقويم وترتيب الأعمال تنازليًّا من الأول حتى العاشر» حسب تعليمات الخطاب، وقمت بالفعل بتسليم تقريري إلى الهيئة، تصادف أن دعاني قصر ثقافة الحرية بالإسكندرية إلى ندوة عامة لمناقشة أعمالي المسرحية.

وبعد انتهاء الندوة امتد حديثي مع بعض الشباب الذين حضروها وكان من بينهم شاب من أبناء الإسكندرية اسمه عمرو عافية عرفت بالمصادفة أنه صاحب المجموعة القصصية «الماء الحرام» التي استوقفتني ضمن الأعمال المقدمة لمسابقة هيئة الكتاب وعرف هو بالمصادفة أيضًا أنني كنت ضمن هيئة التحكيم للمسابقة.

ومنذ ذلك الوقت بدأت معرفتي بعمرو عافية الذي وجدت فيه فنانًا مرهف الحس على قدر كبير من التواضع يماثل حجم موهبته الفذة وهو من زمرة الأطباء الذين اتجهوا إلى الأدب مثل يوسف إدريس وإبراهيم ناجي من قبله، فالدكتور عمرو عافية هو طبيب أمراض جلدية لكنه تمكن من أن يغوص بقلمه الأدبي تحت جلد شخصياته ليصل إلى حقيقتها الداخلية .. إلى قلبها وأوردتها وأعصابها .. إلى روحها ووجدانها.

وتذكرت عند بداية عرض مسرحياتي الأولى «فوت علينا بكرة» عام ١٩٨٤ ثم «القاتل خارج السجن» عام ١٩٨٦ و «٢ تحت الأرض» عام ١٩٨٧ كيف أعرب عدد من النقاد والمسرحيين مثل الدكتور لويس عوض وسعد أردش والدكتور عبد العزيز حمودة عن اعتقادهم بأنها تمثل مسرحًا جديدًا يعبر عن الجيل الجديد بعد جيل الستينات، لكني وجدت كتابات عمرو عافية القصصية أكثر حداثة مما أكتبه وأكثر تعبيرًا عن جيل جديد تالي لجيلي.

وأنا متحمس دائمًا لكل ما هو جديد في الفن والثقافة وآخذ على الكثير من نقادنا الأدبيين أنهم لم يقدموا كاتبًا واحدًا جديدًا طوال حياتهم العملية وإنما اكتفوا بتمجيد القديم، فهم ممن ينطبق عليهم وصف دوجلاس جيرولد الشهير «يرفضون النظر إلى القمر الجديد احترامًا للقديم» وقد تكون الحياة الأدبية مثل سماء الليل التي يظهر فيها كل شهر قمر جديد، وقدرة النقاد، بل وإحدى مهامهم الأساسية،

هي أن ينبهونا إلى ظهور مثل هذا القمر في السماء، لكنهم للأسف لا يرونه لأنهم مشغولون بالحديث عن أقمار السنين الماضية أو القرون الماضية!!

ولقد وجدت في كتابات عمرو عافية ذلك الجديد الذي يمكن أن يثري حياتنا الأدبية فتحدثت إليه في ضرورة أن يسعى لنشر قصصه لكني وجدته غير متحمس لذلك، فهو لا يكتب للشهرة أو للتكسب وإنما لأنه يحب أن يكتب فقلت له إن الأديب الحق هو من يكتب لأنه يحب الكتابة أما من يكتب للتكسب أو للشهرة فهذا له تعريف آخر غير الأديب.

وقد أخبرني عمرو أنه لم يكن متحمسًا أصلاً لإرسال أعماله للمسابقة لكن بعض أصدقاءه المقربين هم الذين ألحوا عليه ليفعل ذلك ففعل وهو لا يتوقع – وربما لا يتمنى – أن يفوز، وبالفعل

لم يفز عمرو في المسابقة، لكن ذلك كان لأسباب لا تتعلق به وإنما بضرورة توزيع الجوائز في كل فرع من الفروع الأدبية على مواطني 15 دولة عربية تقدموا للمسابقة وعدم قصر الجوائز على المصريين وحدهم حتى ولو كانوا هم الأفضل باعتبار الجائزة مخصصة للوطن العربي كله وليست للمصريين وحدهم.

ولمدة عام كامل لم تنقطع علاقتي بعمرو عافية ولعام كامل لم أتوقف عن دفعه إلى نشر أعماله القصصية إلى أن تم في النهاية إرسالها إلى المطبعة وجاءني عمرو في القاهرة يطلب مني كتابة المقدمة للمجموعة قائلاً: أنت المسئول ويجب أن تتحمل مسئوليتك، وقبلت المسئولية بسعادة كبيرة وأترك لك الآن عزيزي القارئ الحكم النهائي، فإذا لم تشاركني إعجابي بهذه المجموعة فأنا الملام، أما إذا وجدت فيها كتابة جديدة لجيل جديد فالفضل لصاحبها الأديب الشاب عمرو عافية الذي أرى فيه إضافة جديدة وهامة على الساحة الأدبية في مصر بعد أن توقف تطورها عند عدد من الأقلام البالية التي لم يعد لديها جديد تقدمه .. هنا عزيزي القارئ ستجد قلمًا جديدًا له مذاقه الخاص وهو أقرب لمِزاجك العصري من تلك الكتابات التي أعرف أنك سئمت قراءتها منذ سنوات.

محمد سلماوي

كلمات في الليلة الأخيرة

٤ فبراير

قررت اليوم أن أبدأ في كتابة مذكراتي أو خواطري. لست أدري على وجه اليقين معنى أي من الكلمتين ولكني سأكتب وكفى.

لماذا اخترت اليوم بالذات لبداية الكتابة لست أدري؟ الأفضل أن أكون دقيقًا في الكتابة. (اليوم) كلمة تلغى وتوضع بدلها (الليلة) حيث إن الساعة الآن قاربت الواحدة صباحًا. لماذا الليلة بالذات لست أدري؟ حاولت أن أجد أي مبرر للكتابة ولكن ذهني أبَى أن يظهر أية فكرة ذات مدلول أو حتى لها أي رونق براق.

بعد فترة من الصمت الفكري – الذي لم أعبر عنه بترك مساحة خاوية على الورق – سأتذكر أن أفعل هذا في المرة القادمة عندما لا أجد ما أكتبه. بعد فترة من الصمت الفكري قررت أن أتكلم عن الجو. طبعًا الجو هنا يعني الطقس – المناخ.

أظن أن أحد الأصدقاء قد قال إن لكل كلمة من المرادفات معنى ومدلول خاص – ربما.

طبعًا عندما يحرج المرء ولا يجد ما يتكلم عنه لا يجد بديلاً سوى الجو.

الجو اليوم لطيف! ثم ابتسامة حرجة.

ولكن الرطوبة عالية. ثم ابتسامة خجلة.

ثم صمت بين الاثنين المتكلمين.

أبدأ من جديد!

الجو اليوم بارد قارص البرودة – ربما هذا أفضل كثيرًا.

....

تركت الكتابة فترة. وقد نفذت وعدي وتركت سطرًا خاويًا. كي أحس بمرور الزمن. أظن أن الكتاب يعبرون عن هذا ببعض النقاط المتجاورة. فلنجرب إذن ...

مكان تلك النقط مذر للغاية كما أنه غير صحيح.

غريبة؟ أتظن ما تكتبه هذا يعتبر مذكرات أو خواطر.

لا! يبدو لي بوضوح فشل فكرتي تمامًا.

تركت الكتابة مرة أخرى. ذهبت لأنظر خلال النافذة – أو من النافذة – لماذا لا أكتب

(نظرت ... النافذة) أكره كلمات وحروف الربط من، خلال، على – كلها لا تدل على شيء.

خطأ.

الأستاذ – الأستاذ الهرم ذو السحنة المتجهمة والقلب الطيب مدرس اللغة العربية بالمدرسة – الصف الثالث. أكد لنا أهمية كل حرف وكل كلمة. المهم أني ذهبت ونظرت .... النافذة. الشوارع خاوية بدرجة مرعبة. وأضواء المصابيح الصفراء التي تهتز بشدة مع سرعة الرياح تجعل الشوارع أكثر وحشة.

.....

قرأت ما كتبت. قرف.

لن أكتب بعد الآن.

5 فبراير

محبوسًا طوال النهار لم أجد ما أفعله سوى أن أفتح هذه الكراسة التي تركتها أمس. الجو ما زال باردًا جدًّا. وهذا حسن جدًّا للجثث.

أليس كذلك؟

الجثث. ترى هل كتبت أمس أن أمي قد ماتت؟

راجعت ما كتبته سريعًا – وهو قليل جدًّا ولم يستغرق وقتًا.

لا لم أذكر هذا.

ابدأ من جديد.

أمي ماتت أمس. ما زال جسدها راقدًا على فراشها في غرفتها المجاورة لغرفتي. يقولون إن الجثث لا تتعفن سريعًا في هذا الوقت من العام نظرًا لبرودة الجو.

أحاول أن أتذكر بعض قوانين الطبيعة التي درستها في المدرسة لعلي أتذكر شيئًا عن الفلزات واللافلزات. لم أتذكر.

كيف يكتسب الجسم الحياة وكيف يفقدها؟

– تصحيح –.

كيف يكتسب الجسم الحرارة وكيف يفقدها؟

وما هي نوعية الأجسام القابلة للاكتساب. ترى أنحن فلزات أو لا فلزات؟

«فلزات أو لا فلزات، هذا هو السؤال».

أضحك بصوت عال ...

تركت الكتابة وذهبت لأتأكد من موتها. جسدها بارد جدًّا.

أهو الموت أم الجو القارص البرودة؟

تأملتها بهدوء. حاولت أن أضفي عليها ما يسمونه سكينة الموت أو أن أرى على شفتيها تلك الابتسامة الرائعة المشرقة التي يكتبون عنها في الروايات العاطفية أو حتى التاريخية.

لماذا كلما يموت أحد الأبطال تكون على شفتيه ابتسامة ساحرة أو غامضة تدل على شيء ما، أو كأنها تقتنص ذكرى من العالم الذي تتركه مودعة إياه بمرح أقرب للمرح الملائكي السماوي.

لاحظت أن الستائر بغرفتها في حاجة إلى تغيير. أرى أثر حرق سيجارة في أحد الأطراف. أتعجب قليلاً. من منا كان يدخن؟ ربما أثر لحرق قديم. لا أشغل بالي. لست أدري.

أحس أني مرهق تمامًا. ذهبت لعمل كوب من الشاي. الشاي مر جدًّا يبدو أني تركته فترة طويلة يغلي.

سأذهب لأنام الآن.

6 فبراير

لن أكتب شيئًا. من السخيف أن أكون أنا مجبرًا على شيء.

لماذا؟

7 فبراير

«أمي ماتت اليوم أو ربما أمس».

أظن أنني قرأت هذه العبارة في بداية قصة ما. لا أتذكر اسمها ولكني أتذكر تفاصيلها تمامًا.

ولكني لن أضاجع عشيقتي هذه الليلة. فأنا لا أتذكر أن لي عشيقة.

كما أني لن أذهب لمشاهدة فيلم ضاحك. فأنا أكره السينما.

وأنا لن أجد عربيًا أقتله على شاطئ ما. رن جرس الباب. تركته.

ترى لو وجدت هذا العربي غارقًا في ضوء الشمس الغاربة هل سأقتله؟

أستمع إلى رنين الجرس المتوتر. ذهبت متثاقلا ونظرت من العين السحرية، إنه خالي. رجعت بهدوء دون أن أحدث أي ضجيج. لن أفتح الباب لن أدعه يدخل البيت اليوم. أعرف أنه سيعود غدًا.

ذهبت لأنظر إليها. رأيت خشونة كعيبها، أكره خشونة كعب المرأة. كانت دائمًا تهتم بأناقتها، إلى أن مات ابنها. أهملت نفسها تمامًا. لم أرها بعدئذ إلا وهي متشحة بالسواد. إن اللون الأسود يضفي على الإنسان روعة وجلال، ولكنها أهملت نعومة كعبيها.

أحضرت إناء به ماء دافئ وغسلت قدميها. إنهما الآن قطعتان من الثلج.

من الرائع أننا في شهر فبراير!

8 فبراير

أيقظني جرس الباب في الصباح الباكر. خالي. دخلت وراءه دون أن أتكلم. ولج غرفتها. لا أتذكر ماذا قال لي. أظن أن أحداثًا كثرة قد حدثت. أناس كثيرون. رأيت أناسًا كثيرين. كان هذا منذ فترة طويلة أنا مرهق تمامًا. الساعة الآن الحادية عشر مساءً. لقد أخذوها وذهبوا. ووقفت في طابور

والناس في طابور آخر، طويل ليس له نهاية. سلم عليّ أناس كثيرون. البعض شد على يدي بقوة. هززت رأسي كثيرًا. الرجل تكلم عن الرحمة. خالي سألني عن نقود لا أعرف مكانها.

ربما كانت في صوانها. ذهبت إلى غرفتها.

لقد رحلت.

١٠ فبراير

أين ذهب 9 فبراير. ربما نمته كله. لا أظن. حاولت جاهدًا قبل أن أبدأ الكتابة أن أتذكر ماذا فعلت فيه أو ماذا فعلت به.

- الجرائد – التي يضعها بائع الجرائد يوميًّا تحت الباب تؤكد أن اليوم هو العاشر من فبراير. كما أني وجدت جرائد أمس لم تمس.

ربما نمت.

المذياع العالي الصوت ينقل لي موسيقى رائعة. الجرائد تؤكد قيام انقلاب عسكري في دولة مجاورة قريبًا.

سأذهب غدًا إلى العمل.

11 فبراير

ذهبت اليوم إلى العمل صباحًا. استفسر الجميع عن سبب غيابي الأسبوع الماضي.

«نزلة برد أصابتني».

أخفيت عنهم خبر موتها، حتى لا يحزنوا. من يحزن؟

وجدت نفسي أضحك بصوت عال دون سبب لماذا يحزنون؟ نظروا إليّ مندهشين.

أتساءل الآن عن معنى كلمة «حزن» ما معنى أن يحزن الإنسان؟ لقد رأيت اليوم عندما توقفت لأكل في أحد المطاعم بعد انتهاء العمل. رأيت كلبًا حزينًا ينظر إليّ من خلال «قطع» رائع! وجدت الحل أنها، «من خلال»، وليس «من» فقط أو «خلال» فقط.

نظر إليّ من خلال النافذة، أظن أنه كان حزينًا وليس جائعًا لأني خرجت وألقيت له بقطعة اللحم فلم يمسها بل أنه حتى لم يتشممها. نظر إليّ ثم استدار ورحل.

الكلمات سخيفة.

١٢ فبراير

اتصل خالي بي اليوم.

«لا!! أشكرك يا خالي».

أظن أنه سألني مرة أخرى عن النقود. والله! لو وجدتها لن أعطيها له. في المساء جلست مع بعض الأصدقاء قال أحدهم

«أن الآلهة مملة» فاعترض آخر بأنه إله واحد فقط.

«إذن فهذا الإله الواحد ممل للغاية».

نهره أحدهم وشجعه آخر.

«لماذا؟».

لماذا يطالبنا بالوصول إلى النهايات. دون أن يحدد لنا البدايات؟

تركتهم قائلاً:

«موضوع ممل».

19 فبراير

مضى أسبوع كامل دون أي أحداث فلم أجد ما أكتبه. وهذا يحدد تمامًا ما كنت أنوي أن أكتب. فأنا أكتب مذكراتي. وليس خواطري.

فمن غير المعقول أن لا يخطر ببالي شيء طوال الأسبوع.

مذكراتي؟!

اليوم أكلت أرزًا وبازلاء في أحد المطاعم الفاخرة. فقد أحصيت حبات البازلاء فكانت سبعة وخمسين حبة. هذا طبعًا غير اللحم ....

هذا ما أسميه مذكرات فعلاً.

19 فبراير

اكتشفت أن الأمس كان ١٨ فبراير وأنا دونته على أنه 19 فبراير هل أصحح الرقم أم أكتفي بهذه الخاطرة؟

بعد تفكير عميق أخذ أكثر من ساعة ونصف الساعة وعدة دورات بالمنزل الخاوي قررت أن أتركه كما هو.

٢٢ فبراير

خالي اتصل مرة أخرى.

قرأت اليوم «لماذا خلق الله النار» مقال في جريدة لكاتب علماني شهير.

أظن أن الله لم يخلق النار. خالي يستحثني أن أجد النقود

حتى لو خلقها لماذا نخلد فيها؟

«طـظ».

أظن أن هذه الطظ لخالي وليست للنار.

٢٣ فبراير

لاحظت أن كمية الكتابة تقل كل مرة عن سابقتها. أتفلسف وأقول «أن الكلمات قيود للروح المتحرر الحر» و«الكلمة ناقصة» وما إلى هذا من جمل ذات رنين خاص.

أتساءل «أ للغـة أهميـة»؟

أقرر أن أصوم غدًا عن الكلام تمامًا لأعرف رد فعل الناس.

٢٥ فبراير

أمس كان يومًا مضحكًا للغاية – تصور الناس أنني أصبت فجأة بالبكم. فلم أنطق كلمة واحدة. حتى عندما استدعاني رئيسي في العمل، قدمت له التقارير المطلوبة دون أن أنطق بكلمة واحدة وكلما سألني عن شيء أوضحته له بالمستندات والتقارير والأرقام المكتوبة.

«مالك لا تتكلم»؟

أشرت إلى بعلومي ونظرت إليه نظرة تدل على مقدار ما أعانيه من ألم. تركني أنصرف.

وفي الهاتف سمعت صوت خالي. لم أرد.

«لماذا لا ترد؟ أتظن أني سوف أتنازل عن النقود؟ أتحاول أن تخدعني؟» تركت السماعة تسقط.

فتحت المذياع وصار صوته عاليًا جدًّا. جاءت الجارة تشتكي من علو الصوت. تركت الباب مفتوحًا وذهبت لأغلق المذياع ثم رجعت إليها.

«شكرًا»

أغلقت الباب ودخلت واجمًا.

ترى لو لم يتكلم الناس ماذا سيحدث؟

أتساءل كيف تكون الكلمة هي صلة الوصل بين الكامل والناقص؟

٢٧ فبراير

مللت الكتابة ولن أكتب بعد اليوم.

١ مارس

جاءت صاحبة المنزل تطالب بالأجرة. أجلستها في الصالون ترحمت على أمي. نهرتها بشدة.

«وأنا مالي»؟

صلبت عيني عليها. وضحكت من خوفها وارتباكها.

«ماذا تقولين»؟

«أنا أريد الأجرة.»

أخرجت النقود من جيبي وأخذت منها الوصل

«المرة القادمة سأرسل لك البواب».

قامت واتجهت إلى الباب لحقت بها.

«أنا أسف لم أكن أقصد أي سوء».

استدارت ثم نظرت إليّ نظرة طويلة ثم ربت على كتفي.

كرهت هذا المشهد، تخيلت منظرنا. أنا واقف أعتذر وهي تربت على كتفي.

هجمت عليها وأحطتها بذراعي بقوة ثم قبلتها بعنف.

ارتدت خائفة.

الحق يقال لم تكن هذه القبلة سوى عمل خالص من أعمال العنف.

«سافل. ولد سافل».

سمعت ارتطام الباب وكأن المبنى سيهدم.

لماذا قبلتها؟ لست أدري. لم يكن هناك أي نوع من أنواع الاستمتاع، فقط عمل من أعمال العنف.

ذهبت إلى الحمام وغسلت فمي ثم نظرت إلى نفسي في المرآة. عبست ثم ابتسمت ثم قلت:

«سافل. ولد سافل».

٢ مارس

قرأت ما كتبت أمس. قررت أن أقيمه بعين الناقد. من الممكن استخدام كثير من الألفاظ التي أقراها في الصحف في صفحات النقد والأدب مثلاً.

«عمل يدل على الانحطاط الفكري للمؤلف».

أو مثلاً.

«عمل لا يتعدى كتب الجنس الرخيصة».

أو بجملة فيها الكثير من الكلمات مثل «مدلول» و«بعد ثقافي وانسيابية تلقائية» «وانعزالية تفردية» وهكذا ....

لا سأعيد قراءته مرة أخرى.

– سطر خاوي دليل على مرور الوقت –.

لو قرأ أحد غيري هذا الكلام سيقول «مصاب بعقدة أوديب» سيقولون قبلها في فورة الغضب ليبرز احتياجه لأمه – المتمثلة في صاحبة المنزل – ذلك لما أحدثته صدمة وفاة أمه.

ولكن من أين لهم أن يعرفوا أنها سيدة كبيرة السن وأنا لم أكتب هذا أمس، كما أنهم لم يرونني ولا أظن أنها ستقص لأحد عن قبلتي لها.

«والحق الحق أقول» أظن أن هذه عبارة من كتاب مقدس.

«الحق الحق أقول» أو ربما ديوان شعر.

الحق الحق أقول إن تلك القبلة لم تكن سوى عمل من أعمال الشغب أو العنف.

٧ مارس

استلمت رسالة من صديق سافر منذ مدة طويلة. امرأته حامل حاولت أن أرد على خطابه. كتبت له أن الجو أفضل هذه الأيام ولكننا في انتظار نوة كبيرة. اقترحت اسمًا للمولود المنتظر. سأخرج الآن لأضع طابعًا على الخطاب لكي أرسله.

الشمس ساطعة. سأتخلى عن المعطف اليوم.

٧ مارس

مساء في نفس اليوم. الجو كان قارص البرودة ويبدو أني على مشارف نزلة برد. قابلت أحد الأصدقاء في الشارع. تمشينا قليلاً حتى منزله صعدت معه لشقته. قال إنه قرأ كتابًا رائعًا. أحضره إليّ.

«عليك أن تقرأه».

كنت قد قرأته من قبل ولكن لم أصارحه. أخذت الكتاب على وعد مني بأن أقرأه سريعًا حتى نتناقش فيه.

رجعت البيت وجدت خالي قد ترك لي ورقة صغيره مطوية. مزقت الورقة دون أن أفتحها.

١٢ مارس

أعدت قراءة الكتاب. أرجعته إلى صديقي قائلاً:

«لم تصلني أية رسالة».

أخذ الكتاب وتركني ومضى حزينًا.

١٣ مارس

ثلاثة عشر. من منا يهوذا؟ ثلاثون فضة؟! يا له من ثمن.

١٧ مارس

لا أتصور لماذا صورت خالي بتلك الصورة القميئة رجل يريد أن يحصل على النقود بأي شكل. العجيب حقًا أن خالي لم يظهر منذ يوم الجنازة. لماذا صورته بهذه الصورة، رغم أني لا أكرهه وهو لم يطلب نقودًا ولم يتصل بالهاتف ولم يترك إلى أوراقًا مطوية على باب الشقة. لماذا؟

يقولون «الخال والد».

والخال هو الحسنة على الخد.

والخال هو الفاضي الخاوي.

والخال هو الذي يخل بشيء أو بفعله. (– خطأ لغوي –).

عليّ أن أدون الحقيقة.

خالي. (ولكن هل لي خال فعلا؟).

خالي لم يطلب النقود ولكني سأبحث عن النقود في غرفتها.

١٩ مارس

ولكني وجدت كنزًا وخطابات وصور، مذكرات، خواطر. وهدايا صغيرة لها قديمة جدًّا ولم أرها من قبل. قررت أن أرتبها. لا بد من مشاهدة كل شيء على حده.

وجدت كل هذا ولكني لم أجد النقود ....

يا خالي.

٢١ مارس

اليوم بداية الربيع. أخرجت الصندوق المحتوي على الهدايا. ورتبتها بدقة حسب التواريخ المدونة على كل منها.

الخطابات. ولكن هل يحق لي أن أفتحها وأقرأها؟ هل لك أسرار يا أمي؟

طي الخطابات في حد ذاته سرٌ.

جاءني هاتف.

«الأسرار للأحياء».

فتحت الخطابات. الخطاب يلي الخطاب. يا إلاهي. إن هذا العالم أقدم من أن أنتسب إليه.

حتى الكلمات قديمة. الخطوط متباينة، رسائل بخط منسق دقيق رقيق من إحدى الصديقات عن رحلة لها في بلد بعيد. تقص عن شاب أشبه بالآلهة قد دعاها هي وأختها إلى أحد المطاعم الفاخرة.

رسالة أخرى فيها عتاب من شخص لم أتبين اسمه. كما أني لم أفهم سبب العتاب.

رسائل ورسائل. عالم لا ينتهي.

عالم آخر.

ظللت أقرأ وأقرأ حتى هذه الساعة. قررت أن أكتب ملخصًا لهذه الرسائل ولكن الفكرة ماتت من تعبي.

فتحت المذياع لأستمع إلى قليل من الموسيقى قبل النوم.

اليوم عيد الأم.

٢٧ مارس

مللت كل ما أفعله. الغرف كلها أصبحت ملآنة بأشيائها المبعثرة هنا وهناك.

رسائلها.

هداياها.

مقتنياتها.

أريد أن أهرب من البيت.

٢٨ مارس

طار أمامي سرب رائع من الحمام. ظللت أتأمله. السماء الصافية بشكل رائع. منظر الطيور ساحر جدًّا. ظللت أبكي.

٣٠ مارس

الساعة الرابعة صباحًا. رأيت حلمًا أفزعني. استيقظت أتصبب عرقًا. رأيت أمي شبحًا متشحًا بالسواد تهيم في البيت الخاوي تبحث عن ابنها الذي مات. البيت غرفه لا تنتهي، تظل تبحث وتبحث اسمعها تنادي «ابني».

ينفرد البيت عن شواهد لقبور. تبحث. تقرأ ما هو مكتوب على الشواهد «ابني».

يأتيها صوت ضبابي خافت.

«المنتحر لا قبر له».

أراها تمد يدها لي. ثم تأخذ نظراتي النسيان.

وأصحو فزعًا على صوتها تنادي.

«ولدي الوحيد».

1 إبريل

اتصلت بخالي ظهرًا. قررت أن أكذب عليه كذبة إبريل. قررت أن أخبره أني قد وجدت النقود كلها، وأني في انتظاره لأعطيها له.

أدرت قرص الهاتف وأنا أتخيل مقدار ما سوف يصيبه من إحباط عندما يدرك الخدعة التي سأعرضه لها. أدركت مقدار الشر داخلي.

«خالي وجدت النقود وأنا في انتظارك لتأخذها».

ألمح نشوة الجنون في المرآة أمامي.

لا يرد.

«خالي النقود ...».

يأتيني رده قاطعًا.

«لم أعد في حاجة لها .. دعها حيث هي».

ألقي بسماعة الهاتف في غيظ وكمد.

«المجنون ..».

4 إبريل

تذكرت الحلم الذي رأيته منذ عدة أيام. تذكرت أمي الثكلى تجوب البيت لوعة على ابنها الذي انتحر. مسكينة أنت يا أمي.

أخرج من غرفتي أتأمل جمالها.

ما أروعك في ثوب الحداد!

5 إبريل

أنا وحيد. ذلك سيء.

أنا مع الآخرين. ذلك أسوأ.

أنا وحيد رغم أني مع الآخرين هذا الأكثر سوءًا.

٧ أبريل

اليوم عيد ميلاد أحد الأصدقاء. حملت له باقة زهور كبيرة. أدرك مدى حبه للزهور ظللت أتأمل مقدار جمالها طوال الطريق.

أقول لنفسي «لم يخلق الله أجمل من الفراش والعصافير والزهور».

وصلت إلى بيته وقبل أن أرن جرس الباب، لمحت صفيحة قمامة ألقيت باقة الزهور فيها واستدرت عائدًا قائلاً لنفسي.

«لن تفرق بعض ساعات لمثواها الأخير».

٨ أبريل

جهنم تليق تمامًا بالإنسان، ولكن لحظه الرائع فهي لا تليق أبدًا بعظمة الله.

١٢ إبريل

بعد أن قررت أن أستمر إلى الأبد في كتابة هذه المذكرات لن أستطيع بعد الآن أن أكتب طوال الليل وأحس أني مرهق تمامًا

الجو في غاية البرودة. ترى هل تسامحني أمي؟

رائع! إن فبراير هذا شهر رائع.

تلك البرودة تحفظ الجثث. ترى هل سيكشفون الخبر سريعًا.

أرى السطور تهتز أمامي ما أسوأ أن يفقد المرء قوته على التركيز، تسللت بخطى هادئة. وظللت أنظر لأمي النائمة في غرفتها.

ما أروعك يا أمي. وما أجملك.

لن يزيدك ثوب الحداد سوى جمالاً.

ترى هل سيعتبرون كل هذا الذي أكتب في هذه الليلة، هذه الليلة الباردة من شهر فبراير، هل سيعتبرونها رسالة وداع؟

هل سيتداولونها على أنها دليل الانتحار، هل ستقرأها أمي

أمي هل ستسامحيني؟ هل ستفهمين؟ لن أجعلك تقلقين عليّ بعد الآن.

أمي هل ستفهمين لماذا تخيلت موتك قبل موتى؟

لن أتأخر بعد الآن يا أمي، سوف أذهب ولكن لن أعود.

أتساءل «هل فعلا ليس للمنتحر قبر».

ترى أين قرأت هذه الأسطورة؟

جهنم لا تليق بالله.

ما أروع ضوء الشمس وهو يبزغ الآن.

الشروق رمز البداية والميلاد.

وأنا سأولد من جديد.

أقول لكم جميعًا كلمتي الأخيرة.

«ما أروع ضوء الفجر».

البورسلين

تتسرب إلى نفسي أنغام برامز الغامضة في ظلام غرفتي. يأتي النور أشبه بأشعة كونية من سفينة فضاء. يتسرب من خلال الباب والنافذة. أتابع اللحن بشيء من القلق ماذا بعدّ يتصاعد اللحن موحيًا بكارثة قادمة. أنظر بهلع للضوء.

أيأتي العالم القادم من الباب؟! ينفتح الباب فجأة مظهرًا كائنات بشرية بشعة تسلط عليّ حروف وكلمات. تضيع الجمل في ضربات اللحن العنيف – أجدني أسخر من نفسي فالباب لم يفتح، والجمل لم تقل. أأهرب من الموسيقى التي ما تزال تملأ الغرفة وتعتصرني؟ الكارثة يرددها اللحن مرة بعد مرة. لا! نور الباب لا خوف منه أنظر لزجاج النافذة. اللعنةّ أعرف أنك هناك. أعرف أنك تنتظرني ربما أنت نفسك لا تدري، ولكنك تنتظرني، يدفعني اللحن بقوة إلى النافذة. أرفع الستائر المخملية ببطء مستمتعًا بإحساسي لملمسها الناعم رغم خوفي مما سيخلق أمامي من مشاهد. أغمض» أراني هناك تشرق الشمس من شعري تملأ السندس الأخضر. أمد يدي ألقي بالقمر إلى حد السماء فيطير فاتنا وراءه كل الحمام فتضحك المراعي وأبدأ في الابتسام ... ينفجر اللحن ثانية مذكرًا – الكارثة – أفتح عيني فجأة يطالعني ما أراه كخوف أزلي وفجيعة حتمية. ترفض عيناي المشهد ولكن الموسيقى تدفعني دفعًا لاختراقه. يبدأني بالأغصان الجرداء في الحديقة المهملة، الممر إلى النافورة الجافة ومنها إلى السور الحديدي الصدئ. أحاول أن أسترجع عيني – لا لا لعبور السور. برامز أتركني – يدفعها دفعًا. الشارع .. ثم هناك يقف في الورشة. هناك الضوء عنده أصفر بلون المرض.

هناك أراه، أراه ظلاً يحدد حركاته ضوء ورشته الأصفر – أراه أسود كثقوب الكون السوداء أخاف أن يجذبني ويبتلعني واستشعر الكارثة – تعلو الألحان – تظل تعلو وتعلو أشهق وكأني أغير أبعاد المجرات. ينتهي اللحن فتنفجر الغرفة وأسقط في مقعدي بلا شعور.

* * *

راجعًا موهنًا من العالم الخارجي أركن سيارتي. أرجع لأغلق الباب الحديدي الكبير تجرح خشونة صدئه أصابعي. أتركه. أمر في الممشى المؤدي إلى النافورة الجافة أجلس على رخامها. أتأمل البيت الكبير – أو كما كان يسميه أهل الحي «السراي» أتأمل الأعمدة – الدرج، الزخارف، يعتريني البوار.

«الحديقة مهملة والبيت ينخسف».

«لم يعد في مقدورنا أن نستأجر بستانيًّا».

أعرف ولكن لا أفهم يا أمي.

أهرب من هذا الباب إلى داخل البيت. أدخل من الباب الحديدي المزين بالزجاج الملون.

الراحة بالداخل!

لم يتغير البيت في داخله. أثاثه كما هو منذ أن كان. كل شيء فيه ينطق بالعظمة والوحشة.

ألملم نظري من أطرافه البعيدة. أسير بدفء على السجاجيد المتناثرة.

ألمس تحفه ببطء مستمتعًا بملمسها البارد.

«البيت موحش» من قال هذا؟ أصعد السلم الرخامي ببطء.

ثم تنتابني روح العظمة. أصعد كملك. تلمع روحي لحبات الثريات البلورية وأطير لأنغمس في ألوان الطيف بها ولكن ..

ينتابني الحزن فجأة فأجلس خائرا على السلم.

مرت أوقات عصيبة علينا ولكن أمي لم تفرط أبدًا في أي من تحف البيت.

أرثى لحال أمي.

«هذه السراي لن أفرط فيها أبدًا».

كنت أسمعها تصرخ بكل تصميم وتحدٍ عندما تجتاحنا الصدمات.

أترك ما في يدي يسقط على السلم – كرة صغيرة من الفضة معلقة في طرف سلسلة مفاتيحي. أتابعها وهي تنحدر سريعًا على السلالم معلنة عن كل سقطة برنة خفيفة. تصل إلى الأرض ...

تجرى ... تتخذل ... تسكن.

أتركها دقائق متمنيًا رجوعها .. أيأس ... أنزل ببطء.

ألتقطها، أتذكر رنين سقوطها فأرفع رأسي لأبحث عن البيانو في ركنه القصي لماذا أهابه بهيكله الأسود الرائع؟

أقاربه محاذرًا .. ألمس أصابعه السوداء يأتيني الشجن محاصرًا.

أهرب منه إلى النافذة.

هناك في مكان ما في ذاكرتي أتذكر تلك النافورة سعيدًا بمائها.

أتذكر الأوراق الخضراء. تجتاحني رائحة لزهور لم يعد لها وجود.

الياســـمين!

أتذكر جلوسي في المقعد الخلفي للسيارة الفارهة، والبيت يظهر متقاربًا والسور كله مغطى بالياسمين رائحته تحضن البيت.

أبي ضاحكًا جالسًا يرشف شايه الصباحي على بساط أبيض من زهر الياسمين.

تعبت وغاب الياسمين.

السور الآن صدأ.

تلمس أمي كتفي لم أشعر بمقدمها.

«لا أستطيع أن أوفر بستانيا. لا تحزن».

أبتسم في يأس.

لماذا تفهمينني؟

«إما أن تحتفظ بنظافة هذا البيت، أو قل بعض نظافته. إما أجر الخادمة أو البستاني»

«أفهم يا أمي».

أعرف أنك لا تستطيعين الاستغناء عنها، عن الخادمة. الخادمة!

هي مَنْفَذهُ!

أتذكر ظله في ورشته. أكره الكيان وأتيقن من ضعفي.

* * *

يأتيني الهاتف من الحبيبة. آه يا صغيرتي. مبهورة أنت بسراي أمي وتحفها أحاول أن أشرح لك. أنا أحب دقيق التحف، تعجبين لها لخاطري. أما ما يأسرك حقيقة كبر الأحجام.

يأتيني صوتها ناعمًا مغردًا.

تنتظر الرد.

«سأمر عليك يا حبيبة القلب لنلمس السماء من أعلى مكان في المدينة .. سآتيك من بيوت الساحرات على أعلى السحب .. سآتيك بنوادر الدر وغريب الأحلام. سألبسك ضوء القمر ...».

«لا! أريد أن أأتي إليك».

ينكسر الحلم داخلي. أقول متضاحكًا «يبهرك البيت».

أرى عينيها تسرح فيه دون أن تراه.

«ما زلت على الخط».

«أريد أن أأتي إليك».

أعند.

«اليوم يوم المدينة». أكره انبهارها به رغم حبي له.

«ما رأيك؟ اليوم للمدينة».

تصمت أبدأ في الضحك ولكن أخاف أن توافق.

لم المدينة؟ أسال نفسي، البيت أنا.

أجيب قبل أن تلتقط يأسها مني.

«سأمر عليك لنرجع نستمتع بوقتنا هنا – في السراي» –

أضحك سرًا.

أسمع ضحكتها ثم يخترقني أزيز الهائف.

* * *

مارًا بسيارتي ببطء. أحاذي ورشته، ألمحه ينظر إليّ. أتجاوزه. أرى انعكاسه على المرآة الجانبية. يتابعني. أريد أن أنطلق بأقصى سرعة. أتمنى أن أضغط على دواس السرعة بأقصى قوة، ولكن نظرته تشلني. تجعلني أبطء.

عيناه لا تزالان تتبعاني. أتذكر اللحن وأخاف الكارثة. يبتعد وتضيع الحدود الفاصلة. أقرر أن أتناسى كل شيء وأهرع إلى قطتي الدافئة.

* * *

تقف أمام إحدى اللوحات منبهرة تتأمل الإمضاء. تشير لي لكي أقترب.

«أقترب لكي تستمع بها»

يحضن كفي كفها. أجذبها برقة للخلف عدة خطوات».

«من هذا المكان تستطيعين أن تتأمليها أفضل، وتريها بحق، كل شيء في هذا المكان أعرفه جيدًا. أستطيع أن أدلك عن كل شيء عنه، متى صنع؟ لمن صنع؟ من أول المشترين؟ من أي الزوايا ترينه أفضل»؟

نظرت إليّ ثم إلى اللوحة.

«حقيقية، ما أروعها حقيقية – أليس كذلك»؟

ضحكت .. أي حقيقة تقصد؟

تأملت اللوحة. رائعة. داكنة، تصور عدة أشخاص في بهو أحد القصور من عصور مضت. إحدى النبيلات تعزف على البيانو. أحد النبلاء يستند على عمود مرمري مستمتعًا بالغرف. آخرون يرقصون، وجالسون.

«أين أنا في هؤلاء؟».

وقبل أن أجيبها أشارت إلى العازفة.

«ألا تشبهني؟».

هناك فوق أحد النبلاء لوحة معلقة على حائط وراءه لراعٍ في استرخاء متآلفًا مع الطبيعة حوله.

«أما أنا فأتمنى أن أكون هذا الشخص. أتعرفين لماذا؟».

«لا! أنت هذا النبيل الذي يقف بجانب العمود المرمري مستمتعًا بعزفي .. أليس كذلك؟».

«لا! أنا هناك معلق في إطار خلف هذا النبيل. أنا هذا الراعي أتعرفين لماذا؟».

«ألا تحب حياة القصور؟ أو ربما لجمال الطبيعة حوله».

«لا أنظري جيدًا. لو بعد مليون من السنين دبت الحياة في هؤلاء النبلاء فسأظل أنا هناك. شخص في لوحة أيضًا. لا حياة فيه» ابتسمت غير فاهمة ثم قالت مندفعة

«لا أنت هناك نبيل مستمتع بعزفي».

آه!!

ما أرعب أن يمر مليون عامًا.

* * *

راجعًا بعد أن صاحبتها إلى منزلها. هائمًا. الشارع ظلام.

أمرق متخطيًا ورشته المغلقة. يتنفس جسدي بفرح غامر.

أتناسى وجوده. أقول «الظلام لي صديق».

وأرى السراي كسابق عهدها. أراها ليلة الزفاف. مبهرة.

باهرة كالنور نفسه. أرى الأمراء والأميرات. أشم عطور النساء.

وألمس نعومة ملابسهم. أرى رونق ملابس السهرة.

السيارات الفارهة.

أرى أمي العروس وأبي العريس.

أرى الثريات .. أقترب من السراي.

رائحة الياسمين!

أتساءل أمعي دعوة الزفاف.

يجرح يدي صدأ الباب وأكتشف ضياع الدعوة.

* * *

جسدي مستمتع بدفء النوم. تدخل حاملة فنجان الشاي لي. أراها دون أن أفتح عيني.

أيتها الخادمة اللعوب؟

أشعر بستائر الغرفة ترفع وبدخول النور لعالمي.

أعرف أنها تنظر إليّ الآن وتتأملني. ربما تعرف أني متيقظ لها.

تضع فنجان الشاي على المنضدة بجانب فراشي.

تصغرني بعامين فقط ولكن عالمها موجود.

أشعر بأصابعها تلمس شعري برفق. أعرف كم تعجب لنعومته ولسواد لونه الفاحم.

تتخلله بأصابعها. يرتعش القلب داخلي.

تلمس جبهتي، أنفي، شفتي.

أفتح عيني فجأة. ترتد بهلع حقيقي ولكنه ما يلبث أن يختفي. تقول بدلال وغنج.

«الشاي يا سيدي ..».

أبتسم لا لشيء سوى للابتسام نفسه. أهم بأن أمسك يدها، ولكن يدي تمتد لتأخذ فنجان الشاي.

أنظر إليها فأراها معه. أراني أراقبهما من نافذتي. أتذكر غيابها لدقائق للذهاب إليه.

«نعم؟!».

فجأة أدرك مقدار كرهي لها. أهب صارخًا.

«أخرجي من الغرفة».

فزعة تحاول أن تتكلم.

«قلت اخرجي» تهرع للباب. تقف ناظرة إليّ بشيء من التحدي.

عيناها تتهمني بأني خائف منها. وكأني أقاوم رغبتي فيها. تظن أنها تفتنني.

أُحَجْر عيني عليها.

تغلق الباب بهدوء.

أستمتع بمذاق الشاي دون سكر.

* * *

المحبوبة سافرت لمدينة بعيدة.

«ربما لأسبوع».

أجوب المدينة حائرًا. لا أغادر سيارتي.

«ربما لأسبوع أو أكثر. لا تبتأس هكذا». هكذا تركتني مودعة.

السيارة حارة بطيئة نهارًا، باردة مجنونة السرعة ليلاً.

قدمي تعشق الضغط على دواس السرعة، أرجع للبيت. أكتب أغنية لا تكتمل.

صارخًا «فقط لو أضمك».

أهن وحيدًا في غرفتي.

أقفز للنافذة أنظر إلى الحديقة. أسرع إلى غرفة أمي.

أكره بعد المسافات.

أطرق الباب برفق وكأني أنفجر فيه.

أقول في هدوء «غدًا سأزرع الحديقة».

«أي حديقة؟».

«الحديقة لن تحتاج إلى بستاني. غدًا سأذهب للمشتل لأشتري وأنتقي الزهور المطلوبة».

«ملابسك خفيفة حذار أن تصاب بالبرد».

«أمي أقول سأزرع الحديقة غدًا». أستدير قبل أن أسمع ردها.

أكره نظرة الحنان الصموت في عينها. أترك الغرفة قبل أن تواجهني به.

* * *

أمتلئ نشاطًا. أذهب للمشتل أنتقي الزهور والشجيرات.

أتكلم كما لم أتكلم من قبل. أروي نكاتًا لا أتذكر أين سمعتها إلى صاحب المشتل.

أصاب بنوبة ضحك. يخفض لي الثمن دون أن أطلب. أطير بسيارتي معي بعض الشتلات.

«سيصلك الباقي غدًا». أشار لي مودعًا. السيارة تطير في شارع تحوطه الأشجار من الجانبين. أتأمل الأشجار وأتأمل سرعة هروبها مني ومن السيارة. تبهرني إحدى الأشجار، أكبحها وأرجع القهقري لها. أغادر السيارة أتأمل الشجرة.

«ما أروعك!».

تنحني لي شاكرة.

أنحني لها خافضًا رأسي.

«مولاتي»!

* * *

شجيرة بجانب شجيرة أحيط السور. أحس أن لا نهاية له. صباحًا لا أنتهى إلا غروبًا».

الزهور هنا، الورود هنا.

الأحمر منها هنا، الأصفر هنا .. أما هنا

أخطط. أرسم.

تأتيني الخادمة بكوب ماء .. بمنديل صغير تمسح عرقي.

أهملها وكأنها غير موجودة.

الماء يمرح في الحديقة. أرش به الشجيرات.

«متى أصلح هذه النافورة»؟

أكتفي بالماء ينهمر عليّ. أستمتع به.

«حذار ستصاب بنزلة برد».

«دعيني أمرح يا أمي».

«ادخل وبدل ملابسك سريعًا».

أنسحب مودعًا الشجيرات والزهور لغد أتمنى مجيئه بفارغ الصبر

* * *

ترتفع حرارتي. أرتعش. أتنفس من مسام جسدي.

ينصهر العالم.

أتون!

تأتيني الكلمات من عالم غائب.

«سيدتي. دعيني أنام جانبه. اذهبي أنتِ كي تستريحي».

أحس ببرودة على جبهتي. يحاول عقلي أن يفسرها.

قطن وماء بارد.

يدي ترتعش أضعها في شيء جانبي. مكعبات ثلجية.

أشعر بيدها على جبهتي.

أمتص برودة الماء.

أغلي.

أتون!

ببطء أستيقظ غارقًا في عرقي تاركًا قوتي في عالم آخر. كارهًا رهافتي. أبرح فراشي منهوكًا. أذهب للنافذة أرى أول ما أرى، أراها هناك في ورشته. أراها تحادثه ترى ماذا تقول له؟

عالم واحد أنتما.

تحكى له عني وعن الحمى. يسخران من ضعفي.

أراها تتمايل ضاحكة. يلف ساعده القوي حول خصرها.

تتحسس ساعده برغبة واضحة. يتحسس فخذها بيديه. تحاول التملص منه، يجذبها من شعرها يقبلها بعنف. تركله بقدمها. يدفعها بعنف. تكاد تسقط. تنظر له في حدة. ثم تضحك متمايلة تسوي شعرها. تودعه بقبلة طائرة. يذهب إليها يودعها وهو يربت على ردفها. أترك الستارة تُسدل.

* * *

في الليل ترتفع حرارتي مرة أخري. أخاف من العالم المظلم للهلوسة.

أحاول أن أظل مستيقظًا.

أقبض على يد أمي.

«لا تتركيني».

لا أدري أقلتها فعلا أم لا. أحاول أن أقولها مرة أخرى لأتأكد.

يخذلني لساني. يدي تترك يد أمي. تسقط يدي ببطء دون إرادة مني.

تنسحب أمي في هدوء ظانه أني نائم «وأنا ما نمت».

يسود الظلام غرفتي

أحزن لوجود العنكبوت على البيانو.

المحبوبة جالسة تعزف عليه دون أن تتحرك. العنكبوت يغطيها.

هي والنبلاء حولها.

المحبوبة وكل النبلاء أحياء!!

أمرت مليون عام؟

يتحركون يمرحون يضحكون ..

ما أروع عزفك يقول لها النبيل المستند على العمود المرمري.

أراه وأخشاه.

أراه قويًا.

قوته تذكرني بمن؟

أرى ساعدًا ملتفًا على خصر.

يلف النبيل ساعده القوي حول خصر محبوبتي. يتأملان صورتي، أنا الراعي.

معلقة على الحائط في إطار.

ينظران لي. أنا فقط أعرف. أنهم. كانوا أشخاصًا في لوحة منذ مليون عام.

ولكن الخوف يعتصرني. فها هم أشخاص اللوحة قد تحولوا إلى الحياة.

«حقيقية» أليس كذلك؟ من قال هذه الجملة؟

أرتعب، فبعد مليون عام سأعيش أنا الآخر.

من للطبيعة بعدي؟

أكره الإطار ولكن أكره المليون عام أكثر.

* * *

«أفتح» أرجع للعالم. المحبوبة جانبي.

«يا حبيب».

أبتسم لها.

«أخيرًا، ليال وأيام وأنت في هذه الحمى».

أمي تقول إن المحبوبة قد عادت سريعًا عندما علمت بنبأ الحمى وأنها لم تتركني.

أقول بصعوبة «ما أروع عزفك».

«أي عزف»؟

أقول مجددًا «ما أروع عزفك».

تبكي أمي «ما زال يهلوس» أحزن أحاول أن أستعيد قوة النطق.

«أني أهزر يا أمي لا تبكي فأنا بخير».

تحاول المحبوبة أن تخفف عن أمي.

تواجهني قائلة «كنت سأصاب أنا أيضًا بالحمى لأجلك. كنت أروي زرعك حتى لا يذبل تلك الأيام الماضية».

تذكرت الشجيرات

«أريد أن أراها».

أحاول أن أنهض.

«لم تستعد قوتك بعد».

«أريد أن أراها».

أهم رافعًا عني الغطاء، أتساند على محبوبتي. أنظر خلال النافذة.

منظر الشجيرات الصغيرة بجانب السور الحديدي العالي الصدئ أصابني بالحسرة والشجن. انهمرت من عيني الدموع دون أن أرغب.

«إنها لم تذبل لماذا تبكي يا حبيبي»؟

احتضنتني بيدها الرقيقة. رأسي الغارق في العرق.

«إن الشجيرات صغيرة جدًّا»!

«سنرويها معًا حتى تورق».

ولكن دون أن أتكلم قررت أن لا أرويها أبدًا بعد ذلك وسأتركها لتذبل.

«إنها صغيرة جدًّا ومحزنة جدًّا».

* * *

تماثلت للشفاء، مع فترة نقاهة أمضيتها متنقلاً بين تحف السراي. ما أروع السراي! ولكن يوم نويت أن أخرج، السيارة لم تدر. فلم يركبها أحد طوال فترة مرضي، السيارة لا تدور.

ترى هل هي الإشارة؟

أحاول مرة أخرى.

ترى هل هو الميعاد؟ أعطّلت السيارة كي أذهب بها إليه؟ كي نتقابل؟

كي نقف أمام أحدنا الآخر.

قررت أن يصلحها هو. سيدور بيننا حوار.

ولكن عند سور السراي الكبير دعوت الخادمة.

اذهبي إلى تلك الورشة – أنت تعرفينها جيدًا – أريده أن يصلح السيارة

سأرسلها لـه.

لم يحن الوقت بعد!

* * *

أراقبهما معا. وكأنها المرة المليون. جاء مصاحبًا لها أراهما من نافذتي ربما يعرفان أنني أراقبهما يتصرفان بحرص. أنهى مهمته سريعًا، دخلت غرفتي.

«سيدي لقد أُصلحت السيارة أتريد أن تجربها»؟

ألمح نبرة تحدٍ في صوتها؟

«لا».

قلتها بحزم دون أن أفكر ولكن لم لا؟

«فليأخذ حسابه ويرحل».

أغلقت الباب بعد أن أعطيتها النقود المطلوبة.

لو كانت قد تكلمت لكنت هشمت رأسها.

* * *

أطير بها. المحبوبة.

«إلى أين سريعًا هكذا»؟

«ستعرفين الآن».

تقصر الشوارع في لحظات. أتأمل كل ما حولي.

«إلى أين»؟

«سأعرفك على صديقة جديدة رائعة».

«تعرف أني أغار. من تلك التي تجري لها وكأنها حبيبتك. أنا فقط الحبيبة أليس كذلك»؟

«أنت أنت الحبيبة».

«من إذن»؟

أقف فجأة بالسيارة. نخطو نحن الاثنان. نقف أمام الشجرة الرائعة.

«حبيبتي أقدم لك الشجرة ....

شجرة أقدم لك حبيبتي».

تضحك المحبوبة غير مصدقة ولكن الشجرة تنحني لها محيية.

فأرد أنا التحية.

وأقول للشجرة هامسًا «يكفيك أنا».

* * *

أسمع الآذان. أراه ذاهبًا إلى المسجد وفي لحظة جنون أتبعه.

خوفي يتصاعد ولكن أحس بالأمان. يقف خاشعًا، أتجه إليه

أقف في الصف أحاذيه جانبه .. أنا لم أتوضأ. أعرف.

أنا وهو سواء في هذا المكان.

تبدأ الصلاة.

نقف جانبًا لجانب.

أسخر من نفسي. يلصق قدمه في قدمي وكتفه في كتفي.

أكره أن يلمسني أحد.

أتباعد.

أحسن أني في فخ ولا مخرج.

يقترب مني أكثر. أكره أن ألمس. أريد أن أصرخ. أبتعد. أصمت.

صوت الإمام ينساب داخلي. استمع وأخشع. أغمض عيني.

ثم أفتحهما فأرى الساعة المعلقة على الحائط متوقفة، تسقط الصلاة مني فجأة لأن الساعة متوقفة.

أهرب سريعًا عند انتهاء الصلاة.

* * *

وفي ظلام البهو الفسيح. أجلس على أحد المقاعد الوثيرة. أرى انعكاسات الأضواء الآتية من الخارج على الثريات والبلور والمرايا والتحف الزجاجية. عالم مبهر من الجنون البارد.

«أتريد شيئًا يا سيدي»؟

يأتي صوتها من الظلام المترامي. لا أراها.

«اقتربي».

تدخل دائرة الأضواء المنعكسة. تظهر كحورية حولها نور أسطوري.

شعرها مسدل على كتفها.

«لا».

تقترب تلمع عيناها كهرة صغيرة. أهب واقفًا، تلتصق بي.

تلثم شفتي. أكره وجودي معها. تركع أرضًا. تشدني إليها.

راقدًا جوارها. شاعرا بملمس السجاد لجسدي العاري. تهدل شعرها على جسدي. تتخلل أصابعها خصلات شعري.

تمر بطرف لسانها على شفتي. تقبل حاجبي. تطوف بلسانها على أنفي ومنه لذقني أشعر بشعرها بين شفتي.

أنفجر عنفًا.

أضاجعها محتقرًا فيها جنس بأكمله.

أضاجعها بين التحف والثريات وانعكاسات البلور.

أضاجعها مهينًا فيها السراي وخارج السراي.

أضاجعها مهينًا له فيها.

أضاجعها محتقرًا فيها جنس بأكمله.

أضاجعها فأتخلص من بشريتي تاركًا لهم الفتات.

أضاجعها فيفنى الكون.

* * *

أراهن الثلاث يزين بهو السراي.

«كل عام وأنت بخير».

«الليلة حفل عيد ميلادك».

«دعوت من الأصدقاء عددًا لا بأس به».

أتساءل: لم؟ فمنذ زمن بعيد لم أحتفل بعيد ميلادي.

«لم هذه السنة يا أمي»؟

«أريد أن أفرح بك».

«أنسيت الفرح أم ماذا بك»؟ تقول المحبوبة عابسة بمرح ثم تكمل.

«كنت أريد أن أحتفل بك أنا وأنت فقط ولكن هذه أوامر عُليا».

كانت تنظر لأمي وهي تضحك.

«هذه الليلة ليلة لعمر جديد، لعالم جديد».

«أما هداياك فبعد إطفائك للشموع».

«من سيأتي»؟

«لن تتخيل! لن تتخيل من وكم، لقد دعونا أقارب لم نراهم منذ زمن وأصدقاء راحلين ولك في نهاية الحفل مفاجأة».

«عيد ميلاد سعيد».

تركتا ما يقمن به أقبلتا تقبلاني

ومن خلالهما أراها هناك تبتسم ساخرة.

* * *

كيف جمعا كل هذا العدد وبهذه الطريقة. يبدو أنهما قد دبرتا هذا الأمر منذ زمن.

أصدقاء قد سافروا كيف جاءوا؟

أهل لم أراهم من زمن.

السراي تتلألأ.

أمي وأحلامها. الجميع في ملابس السهرة الجميع وكأنهم جاءوا من عهد انقرض لعظمة ورخاء زال منذ أمد.

أتساءل من أين أتت أمي بكل تلك التكاليف؟

تبتسم أمي دون أن أسأل وتربت على خدي برفق وحنان.

أرى عددًا كبيرًا من الخدم بزيهم التقليدي يقدمون الكؤوس، يأخذون المعاطف الفرو الثمينة .. ويقفون على المائدة التي لا نهاية لها.

ولكن أين هي – الخادمة – لا أراها.

أسمع صيحات الإعجاب من كل من حولي. أراهم ينظرون إلى السلم الرخامي.

أرى محبوبتي الجميلة تقف على السلم في زي للسهرة أسود رائع كأن السماء قد شقت. تهديني أجمل من في الكون.

هرعت إليها. أخذت يدها في رفق لثمت يدها الناعمة الصغيرة بقبلة رقيقة رقتها نفسها. أنظر إليها فيتخلل جمالها روحي.

نهبط الدرج برفق. يتأملنا الجميع. لمحت انعكاس صورتنا في المرآة الكبيرة جدًّا المواجهة لنا. هالني شكلنا.

كنا كما يجب أن نكون.

كنا حقيقتنا. رائعان من عالم لا ينتسب للآخرين.

كنا ننتمي لنا. للأصل. تحفتان منسجمتان مع بقية تحف السراي.

أرى أمي تتأملنا وأسمع الماضي.

«هذه السراي لن أفرط فيها أبدا».

قطعتان جميلتان.

«لن يخرج أي من هذه التحف خارج السراي».

ولكني كنت أعرف أنه هناك خارج هذه السراي، خارج هذا العالم في زيه ذي الشحم والزيت في ورشته ذات الضوء الأصفر المريض. إنه هناك ينتظرني وأنني له لذاهب أردت هذا أم أبيت.

ضغطت محبوبتي برفق على يدي. أفقت. يجب أن أقاوم.

* * *

تصاعدت الألحان عذبه رائعة. أخذت محبوبتي إلى السماء رقصًا.

تمايل جسدانا محلقًا في الألحان بلا نهاية.

طلب الحاضرون من العازفين ألا يتوقفوا عن العزف حتى لا نتوقف عن الرقص الحالم الساحر.

غلفنا عالم من السحر والغموض.

أهو خلق جديد؟

جالت الفكرة في أعماقي فرحًا غير مصدق غير راغب أن أفهم.

ضممت المحبوبة في رفق، أحسست بنبض قلبها داخلي.

«العالم لك»!

ابتسمت ساحرةُ عمري.

«سأهدي لك كون الساحرات. سأهديك ضوء القمر».

«لنخرج للشرفة كي نراه».

تقدمتها ويدها نائمة في يدي، تجر طرف فستانها الطويل

«الهواء منعش والقمر بدر».

أحبك قلتها دون أن أتكلم.

رفعت يدها لشفتي أهديها روحي بقبلة.

«انظري هناك إلى القمر ما أروعه».

«الكون كله مظلم ولا نور سوى القمر البدر الجميل وهذا الضوء الأصفر في منتصف الشارع».

شلتني الكلمات. إذن فهو ينتظرني.

لثمت شفتيها بقبلة سريعة وتركتها دون أن أتكلم.

دخلت بهو السراي متجهًا إلى بابها الحديدي فتحته وقبل أن أرده خلفي لمحت أمي بين تحفها تنظر إليّ وجلة.

عبرت الممر إلى الباب الحديدي الصدئ وخرجت متجهًا إليه.

* * *

وقفت في منتصف الشارع مواجهًا ورشته. داخلها كان يقف منتصبًا متحديًا .. وحيدًا.

وقفت بملابس السهرة الأنيقة تفوح مني أغلى العطور.

خرج من ورشته ووقف أمامي في زيه المشحم القذر وفي يده إحدى آلاته.

وقفنا أمام أحدنا الآخر.

أخيرًا.

أنا بكل أناقتي وهشاشتي وهو بكل خشونته وعنفه.

أخائف؟ جاء السؤال حائرًا.

اقترب أكثر. عزف برامز الآن.

كان من الممكن أن أتساءل لماذا جئت ولكن لم أفعل.

رفع آلته ببطء لمعت الطبيعة في عينيه وهوى بكل عنف على رأسي.

تساءلت وأنا أهوى مهشمًا.

أمن المرعب أن يكون هناك مليون عام؟

* * *

الجريـح

انتشله إحساسه بالتعب والإرهاق من إغمائه. أحس بحرارة الشمس، بثقل ملابسه. عاجز عن فتح عينيه بل وغير راغب أيضًا في تكشف ما يدور حوله. أي خطر دامغ! هذا التعب الذي أيقظني وكأنه أنقذني من موت مجهول اللون .. اقترب من وعيه الكامل. ازداد إحساسًا بلزوجة ملابسه وحرارة الجو ...

ضحكةٌ حالمةٌ ساحرةٌ على شط بلا نهاية ..

خاف أن يفلت منه وعيه مرة أخرى. واجه نفسه .. من المؤكد أني قد فقدت الوعي وها أنا ذا أستعيده ..

لكن تلك اللزوجة التي تحيط به أخافته .. أي عالم هذا؟ ..

أيسلم نفسه ثانية لتلك الغيبوبة المريحة .. لا. اشتعلت الدنيا حمراء أمامه. الدنيا من خلال جفنيه .. غير قادر على تحريكهما .. أضاءت له الدنيا كعالم من دم ... أي دنيا تلك التي نراها من خلال جفوننا؟ ... أنا على فراش في مكان ما ...... أكد لنفسه هذا الكلام .. من المؤكد أني على فراش في مكان ما. تحسس ملابسه، خشنة .. أي ملابس نوم هذه؟ ترك يده تسقط جانبه لسعته حرارة الرمال فأجفل من نعومتها. تلك اللسعة جعلته يستجمع كل ما تبقى له من قوة في وعيه، وغير قادر على تحريك جسده ترك جفنيه ينفرجان محررًا عينيه فجأة من نعاسه. أصابه العمى لحظة أن بهره النور الغامر القوي .. نور أبيض كحد السكين. تراقصت كرات حمراء أمامه تبعتها كرات صفراء. شد جسده كله ليهرب من جحيم هذا النور الساطع فثنى جذعه دافنًا رأسه بين ركبتيه .. تداخلت الكرات المضيئة في سرعة مذهلة تاركة عالم من ظلام مريح بل ظلام منير منعش. أرخى تعبه تاركًا عنان فكره. أفزعه فراغ عقله.

أين، متى، لماذا .. والأهم من؟

أغراه هذا الفراغ الفكري بالاستسلام مرة أخرى لفقدان الوعي. ترك جسده يتمدد ثانية على الأرض. انغرس الألم في صدره. صرخ دون أن يدري وشد جسده مرة أخرى. تحسس موطن الألم. هاله منظر

الجرح والدم المتجلط ووضح زيه العسكري تمامًا أو بقايا زيه العسكري. أيقن أنه جندي. برزت الأسئلة معلنة بصخب عن فقدانه للذاكرة. تلاحقت الأسئلة. سرح في زحام عالمه المتكشف له ..

زي حربي ... رمال .. جرح غائر في الصدر ... عين حارقة في قلب السماء .... ألم كحد السكين .. و ... فقدان وعي.

ترك عينيه تكشف له عما حوله. صحراء بلا نهاية. أرعبه فناء الأفق في الضوء المبهر، التفت وراءه .. إنسان .. جندي آخر .. أهو حي؟

سلاح مُلقى.

اختلطت المشاعر والمشاهد عليه غرق كل هذا في حدة الضوء المحيط به. حاول ترتيب ما توصل إليه عله يصل إلى تفسير أو يستعيد ذكرى ..

.. أنا جندي فاقد للذاكرة. ما أعجب هذه الكلمة. بجواري جندي آخر .. أعدو أم حليف؟ ضائع على أرض لا أعرفها .. أي حرب هي أو حرب كانت؟ إلى أي المعسكرين أنتمي للمنتصر أم للمهزوم. أأنا على أرض سليبة أم على أرض مغنومة؟

.. أراد أن يضحك ولكن الألم أنساه الضحكة ولم يبق منها سوى صداها في نفسه .. وما فائدة انتمائي الآن لبلد مهزومًا كان هذا البلد أو منتصرًا .. ماذا يجدي؟ أأكون جنديًا مرتزقًا لا أنتمي لأي منهما أو ربما كانت تلك الحرب حرب أهلية ولا نهاية لها وهذا الراقد بجواري؟ أصديق أم عدو ... زيه مختلف ولكن أيدل ذلك على شيء ..

رباه!! رباه؟ إذن أنا أؤمن بإله أيّ كان هذا الإله ..

زحف رغم ألمه إلى الجندي المطروح خلفه. هزه بما فيه من قوة .. حي .. يكاد تنفسه ألا يلاحظ. تأكد أن لا فائدة من هذا الجريح .. تأمل وجهه رغم التراب والغبار اللذين يعلواه. هادئ مريح تأمل جسده وساقه ذات الأنسجة المتهتكة، لا يكاد يميز بين الجرح وما يحيطه من بقايا الزي العسكري. تحسس الساق بأصابعه. أنّ الجريح فسحب يده سريعًا تاركًا عينيه تغوص في الجرح. انتابته لحظة ارتياح وهو يتأمل جرح الآخر .. ليس جرحه بكل هذه البشاعة .. لا .. أي لحظة جنون هذه .. عليّ أن أعرف من أنا .. أنا لا أستطيع إلا أن أكون نفسي ولكن من أنا. لن أشغل نفسي بأشياء أخرى بجريح أو بجرح، بسلام أو بحرب فقط من أنا؟ أسئلة من جديد .. أي جنون!! فلأصمت.

الغروب .. الشمس تميل باستسلام لليل زاحف ببرودة غادرة. ولا يد تمد. تأمل الشمس في غروبها. برزت مشاعره فجأة عن منظر غائم في ذاكرة قبل خلق الكون .. يد تودعه .. رباه أهي بداية التذكر .. أأستعيد الذاكرة؟ .. يد من كانت؟ حاول أن يستعيد هذا الوداع. لم يبق غير لحظة وداع غائرة في ماضي سحيق ممحي من ولمن؟ أراد أن يصرخ. أغمض عينيه .. سأفتحهما فتهرب الصحراء ويتلاشى الجريح وأجد نفسي حيث أكون حيث كنت .. يفتح عينيه .. يبكي فلينهدم هذا العالم .. لا! ثم لا. نهر نفسه بشدة .. عليّ أن أرحل من هنا .. تحامل ووقف كاد أن يسقط من ألمه وتعبه. نظر إلى الجريح الملقى على الأرض ثم إلى السلاح. فكر في أخذ الجريح معه. لا. لم؟ السلاح أهم .. ربما أنا على أرض معادية سأخذ السلاح .. هم أن يلتقطه .. وهذا أأتركه؟ .. لا تعد السؤال .. السلاح أهم التقط السلاح .. ربما كان صديقي .. ربما كان أخي .. ربما حملني هو إلى هنا إلى أن سقط إثر إعيائه .. آه .. فقط لو أتذكر .. لو أتذكر أي شيء .. لا مجال للعواطف هنا .. فلتحمد من تعبده أيًّ كان على جهلك بعلاقتك بهذا الجندي الجريح.

أمشي! يخطو عدة خطوات ثم ينظر خلفه .. يتأمله من جديد .. هو عدو بلا شك ربما كنت أسيره ربما كنت أسير أمامه مذل مهان رافعًا يدي وهو يهددني بسلاحه هذا ثم أصيب في هذه الحرب المجنونة .. أأتركه لو كان عدوًا .. ألم تتركه وأنت تظن أنه صديق؟ والإنسانية وانتمائي أنا وهو لجنس واحد .. هدر! يبدو أني على درجة من الثقافة أتكلم كلامًا ذا رنين. اللعنة عليك، اصمت، وحاول أن تستعيد ذاكرتك وجسدك .. فجأة رمى السلاح واتجه للجندي الآخر. يحمله ويسنده على كتفه، يئن الآخر فيصيح به «ألا تسمع؟ من أنت ومن أنا»؟

يسير ويقع ويسير ويجر الآخر الجريح. لم يعد يفكر في هويته. لم يعد يفكر في حمله الذي يجهله. لم يعد يفكر في شيء سوى الأفق. نهاية هذا الجنون، الأفق لا يشعر ولا يحس إلا به .. الأفق.

ربما سار ألفًا من السنين ربما سار بعضًا من دقائق.

الأفق. أي شيء يلمع هناك. نقط سوداء تبرز. تظهر .. تلوح .. تتجلى. أناس أي أناس. كاد وهو لا يقوى حتى على الزحف .. كاد أن يجري. لا يعوقه سوى الألم والتعب والعطش والآخر. الذي اعتبره الآن جزءًا منه. طارت روحه إليهم .. أمل. كل الأسئلة من جديد أين وكيف ولم ومن .. من .. من؟ أأعرف من أكون؟

أقترب أكثر فتتضح الرؤية أكثر .. قبيلة .. عدة خيام، بعير، ألوان زاهية ترى مع من أنتم؟ أأعداء، أحلفاء؟ ماذا يهم. أنتم بهدفكم هذا لم تشغلوا أنفسكم بحرب، حث السير تجاههم وكلما اقترب المنظر ازداد تعبه ويقينه أنه سيموت قبل أن يصل إليهم وربما قبل أن يلحظوه.

أراد أن يصرخ أن ينبههم لوجوده. غرقت الصرخة في عطشه، ولم تطفو إلا بعض الهمهمات من اللسان الحجري ..

وها هم وها أنا أموت قبل أن أصل لهم أخذ يهوي يهوي ويأخذه ظلام مريح مبهم ..

انفلتت منه تاركة شعرها يطير معبأ برائحة زهور الياسمين المخدرة

آفاق من خدره .. ما زلت فاقدًا للذاكرة ... ممدًّا على وسائد حريرية وبجواره الجندي الآخر ممددًا هو الآخر على وسائد حريرية .. رآهم .. كل القبيلة .. كل فرد يؤدي عمله، حتى الأطفال يلمحهم يلعبون بعيدًا .. لم لا يهتمون بنا؟ .. أي لغة تلك التي يتكلمونها؟ .. لغة يشعر أنه يفهمها كأنه عرفها في زمن ولى. حاول فك طلاسمها، فشل .. حاول أن يقتنص أية كلمة من أي حديث يسمعه منهم ولكن سدى ضاع مجهوده ..

تكلم ببطء .. أريد أن أشرب .. التفت إليه أحدهم ولكنه لم يأبه به أو بعطشه أريد أن أشرب ..

لا فائدة.

نظر إلى الجندي الجريح .. حاول أن يتذكر .. ترى أأنت صديق .. ما زال صدرك يتحرك حركة تكاد لا تحس، حركة متوالية ..

موج وعناق على شاطئ ولون أزرق بهيج وطائر يطير عن بعد ..

أفاق .. أما زلت هنا؟

أريد أن أشرب .. وما من مجيب.

لماذا لا يقربوننا لماذا أنقذونا إذن. لماذا وضعونا على وسائد حريرية أنا وهذا الذي يرقد بجانبي.

ينظر إليه .. مات. مات. لا يتحرك .. يتأمل جرح ساقه مرة أخرى ربما لم يمت. يدقق النظر .. لا إن للموت رائحة ووجودًا. إنه بجانبي جثة. لقد مات .. أي عناء تجشمت من أجل إنسان كتب له أن يموت: عدو كان أم صديق. وهؤلاء لم يهملوننا؟ ملعونون جميعًا.

صرخ بكل ما أوتي متحديًا عطشه وتعبه.

«لقد مات .. مات».

وما أن صرخ حتى أتى كل أفراد القبيلة تجاهه .. هناك أمل.

وقف الجميع ينظرون إلى الجثة .. إذن أنتم تفهمونني. لقد فهمتم أنه مات ..

ما لكم تبحلقون فيه هكذا؟

انتهز الفرصة .. «ماء .. أريد ماء .. أريد أن أشرب .. ماء .. ماء ..

فما عبره أحد. أيها الملاعين. أنا من أتكلم، لقد مات هذا المجهول .. لماذا تهتمون به الآن. لقد مات.

«مات» اللعنة.

أتى أحدهم بدلو كبير به ماء .. كاد أن يهجم عليه. أي عطش هذا وأي صبر قد صبرت على عطشي هذا ...

وضعوا الدلو بجوار الجثة وبدأوا في غسيل جرح الساق ثم غسيله كله. اللعنة عليكم أريد أن أشرب.

صرخ «ماء» ولا مجيب. جمع كل قوته لكي يصل إلى الماء سقط من الوسائد الحريرية ثم خارت قواه وكاد أن يفقد وعيه.

ببطء يغسلون الآخر بل إنهم يعطرونه الآن. أي ثوب أبيض يدثرونه به ...

أموت أنا غيظًا وعطشًا وكمدًا. أنني أنا الحي أنا الحي .. اتركوه .. حملوه على أكتافهم في كفن أبيض. داروا به ثلاث دورات واسعة ثم وضعوه على صخرة عالية أحاطوه بدائرتين، الداخلية للرجال والخارجية للنساء ..

تشابكت أصابعهم معًا. دار الرجال في اتجاه معاكس لدوران النساء.

... أية طقوس عجيبة تلك؟ لماذا يتركوني أنا .. أنا الحي فلماذا تهملونني؟

أي ساعة شؤم جعلتني أحمل هذا الجريح معي ..

بدأوا الهمهمات .. همهمات عجيبة وأصوات متقطعة مدغمة .. ملعونون أنتم وموتاكم ..

ازدادت سرعة دوران الدائرتين المتداخلتين وارتفعت الأصوات .. أي جنون هذا، ساقطًا على الأرض ما زال يلمحهم بطرف عينه.

توقف الدوران فجأة على عكس بدايته. أخذت النساء يرششن الماء على الكفن المرفوع، أي ماء يضيع سدى على جثة وكفن ورمال .. وأنا هنا يقتلني العجز والعطش .. ..

حمل الرجال الجثة مرة أخرى مشعلين نارًا بدلاً منها على الصخرة العالية وداروا بالجثة دورة واسعة إلى أن رجعوا إلى مكانهم الأصلي. انزلوا الجثة في قبر حفرته النساء أثناء تلك الدورة. انزلوا الجثة في هدوء وروعة وبدأوا في ردم التراب عليها حتى اختفت تمامًا عن الأنظار. أتى رجل منهم حاملاً قوسًا كبيرًا ووضعه على القبر ثم خر ساجدًا وتلته كل القبيلة. كلهم خروا ساجدين حول القبر المعتلى بالقوس الكبير ..

اللعنة عليكم ها أنا سأسقط مغشيًّا عليّ وربما لا أفيق وأنتم ساجدون لشيء لا أعرفه ولا أفهمه .. أنتم هناك أي جرعة ماء تنقذني ...

ربما بعد ما تنتهون منه تلتفتون إليّ وتعتنون بي.

ما أجمل هذا النخيل وتلك العينين .. وقبلة ساحرة في ظل نخلة باسقة لتاج السماء. تلاشي الحلم مع استعادته لنفسه من إغمائه.

رأى كل فرد في القبيلة ملهيًا بعمله .. اللعنة ستتركونني أموت ثم تقدسونني. ستتركونني أموت ثم تعبدونني.

ملعونة أنت يا أحلام.

ملعونة أنت يا سماء.

ملعونون جميعًا يا من تعرفونني ويا من لا تعرفونني.

اللعنة إني أموت.

وتراءت له جنات من عيون صافية وهو يفقد نفسه للمرة الأخيرة

الآن يا غريب

استيقظ اليوم ومعه إحساسه الكامل باليقين.

«اليوم» تجلت الكلمة أمامه كاملة. نظر حوله وحاول أن يتابع أحد الخطوط التي تزين جدار خيمته.

«أو ربما غدًا».

ضاع الخط في وسط التشابكات الكثيرة. أزاح وبر الماعز بعيدًا. أحس ببرودة الفجر تتسرب داخله، لكنه لم يعر هذا الإحساس أي اهتمام فجسده وروحه أصبحا جزءًا في الطبيعة.

حاول أن يجد الخط مرة أخرى. سار بنظره على الخط في بطء لمحاولة عدم هروب الخط منه.

«تشابكات، تداخلات».

طافت بفكره عدة صور مختلفة ولكنه لم يرفع عينه عن هذا الخط وحاول ألا يفقده.

«لم أندم أبدًا».

* * *

«لا مكان لغريب وسط قبيلتنا» صاح شيخ القبيلة.

«العرب أهل الكرم».

«أكرمناك – كأي ضيف – ثلاثة أيام».

«لم أجيء لكي أكون ضيفًا. فأنا أريد أن أستقر».

«لا استقرار مع بدو رحل».

«استقراري في الرحيل».

«إذًا ارحل عنا».

«لم أعد قادرًا على الرحيل وحيدًا».

«ستظل بيننا غريبًا».

«سأكون منكم».

«لن تكون، فأنت ابن الحضر، ابن المدينة. ابن الزرع».

«ودعت كل شيء».

«نحن للصحراء».

«وأنا لها».

«ما لابن الطين أن يتركه للرمال».

«أنا في الصحراء منذ سنين».

«ما زلت غريبًا عنها».

«كنت وحيدًا ولكن لم أعد أستطيع».

«إذًا ارجع».

«لا للرجوع»!

«حياتنا جفاف وليلنا عراء».

«لا للرجوع، سأكون منكم».

«لن تكون، ستظل غريبًا وستنادى بالغريب».

«ليس جديدا!»

* * *

وجد عينيه متحجرتين عند نهاية الخط. إذن لقد تبعه الى آخره دون أن يدري أو ربما تبعه بكل ما في كيانه، فجأة فقد كل اهتمام بالخطوط والزينة وأخذ يبحث عن عصاه وجدها على الأرض بجانب مخرج الخيمة. اتكأ عليها ومد يده وفتح فتحة صغيرة في الباب. قابلته الشمس. مستلقيه على الرمال.

انفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة.

«شمس يوم جديد»

* * *

«غريب يا ولدى، قبلناك في القبيلة».

* * *

«شمس آخر يوم».

رأى الخيام المتناثرة أمام خيمته. الكلب والماعز. البدويات والثياب المزركشة حتى الأطفال. الكل لهم اليوم الجديد.

بقايا نار الليل، دماء جافة. الكل له اليوم الجديد.

* * *

«تكون في القبيلة مرسالنا للحضر يا غريب».

«لا للرجوع»!

«ستكون مرسالاً فقط».

«لا للرجوع»!

«أتهاب الرجوع أم تهاب الحضر؟»!

«النفس تكره الرجوع ولا تهابه».

«لكن الرجوع سيكون لنا، ستذهب لترجع لنا».

«لا للحضر».

«لا تريد أن تذهب إذن».

«اعفني سيدي».

* * *

الصحراء!

خيمته آخر خيمة فهو ما زال الغريب. خرج منها ودار حولها. تبعه الكلب في هدوء.

«الصحراء».

آه منك أيتها الصحراء.

حرك وبردك. ليلك ونهارك. انبساطك وهضـــابك. نعومتك وخشونتك.

«عشقي أنت أيتها الصحراء، أيتها الحبيبة».

* * *

«غريب ... أعشقك وأهواك».

«قلتها أنت يا زينة. قلت غريب واللا دائمًا للغريب قلتها لا للغريب».

«غريب .. أهواك .. أحبك».

«غريب أنا عنكِ .. غريب عن القبيلة».

«غريب عنهم ولكنك أنت مني وأنا منك».

«غريب وسأظل غريبًا».

«شيخ القبيلة يعتبرك الآن. بعد كل هذه السنين – منا».

«ما زال وما زلتم تدعوني بالغريب».

«لو تريدني سيوافق».

«سيأبى يا زينة البنات».

«سأجعله يوافق».

«يا زينة أحبك ولكنك لست بعشقي. عشقي هذي الصحراء»!

«ما لنا والصحراء. أنت ابن الزرع».

«ما زلت لا تعرفيني».

«يا غريب أرى فيك الخضار. أرى فيك الينوع. ما زلت يا غريب رائحتك ورود».

«اللعنة على الخضار. تعشقين في جسدي طين الجذور. يا زينة أنا عشقي صحراؤك ولا شيء سوى صحراؤك. جئت وحيدًا لها وسأظل وحيدًا لها».

* * *

ترى كم من الأعوام مرت على هذا الحديث لم يعد يدري. ولم يعد يأبه. لم يعد هناك أي فرق.

استند على عصاه ورجع مرة أخرى إلى باب الخيمة. كل القبيلة الآن مستيقظة أناسها وحيواناتها.

تأمل القبيلة كلها ثم دخل الخيمة ذهب إلى حيث دلوه المملوء بالماء. خلع جلبابه ببطء واغتسل بقدر ماءه القليل. ترك نفسه عاريًا حتى جف تمامًا. ثم ارتدى جلبابه مرة أخرى.

* * *

«يا شيخ غريب».

«أتنادني بشيخ يا شيخ العرب».

«لك معنا أيام وسنون. الشيب يأكل رأسك».

* * *

اتجه إلى حيث ثوبه المكنون. تأمله بحنين.

«آن الأوان» هكذا حدث نفسه أخرج الثوب الأبيض الطويل من جلد الماعز.

«كم من السنين مرت وأنت هنا».

حمله بهدوء وخرج من خيمته وهو يتكئ على عصاه. اتجه مباشرة إلى خيمة شيخ القبيلة.

نظرت كل القبيلة إليه وهو يسير حاملاً ثوبه الأبيض

الكل يعرف الآن أنه اليوم.

الكل يدرك حتى الأطفال.

تبعته الأنظار ولكن أحدًا لم يتبعه.

شيخ القبيلة. أيها الشيخ ذو الألف عام.

قام الشيخ عندما رآه.

الكل يدرك الآن وأنت تعرف من سنين أيها الشيخ العجوز.

«أهلا يا شيخ غريب» هكذا حياه شيخ القبيلة.

سخر من نفسه ما زلت أدعى غريبًا.

قال بصوت هادئ: «اليوم يوم الرحيل».

تأمله الشيخ في بطء.

«أتخاف الرحيل؟».

«أشتاق إليه».

«كنت تخافه من قبل».

«كنت أخاف الرجوع ولكنه اليوم رحيلاً».

«جئتنا لتذهب».

«مكثت أعوامًا».

«ظللت غريبًا».

«أنا غريب»

صمتا الاثنان فترة طويلة.

ابتسم شيخ القبيلة وقال: «ثوبك أبيض لون برودة قمر الصحراء»

ترك عصاه واستدار دون أن يقول شيئًا، وبدأت رحلته القصيرة.

المغيب واقتراب الليل. احمرت السماء واحتضنت الشمس أرض للوداع. وقف لأول مرة منذ أن ترك القبيلة. كان يسير وكأنه يعلم مكان اللقاء.

«هنا».

قالها للمكان.

«هنا».

قالها للزمان.

ركع ببطء على الأرض ووضع ثوبه الأبيض جانبًا. أخذ يحفر دون أن يتعب أو يمل وعند تمام المغيب أتم الحفر.

خلع جلبابه وفك الثوب الأبيض ولفه حول نفسه. نام في الحفرة وأخذ يردم الرمال على جسده بكلتا يديه حتى غطى جسده كله إلا رأسه.

«تأخذني الصحراء».

أحس بالرمال تتسرب وتنساب بين طيات الثوب. أحس بها حول جسده العاري. أحس بها وهي ما زالت تحتفظ ببعض حرارة الشمس. أحس بها وهي تفقد حرارتها سريعًا.

«لا يهم».

أراح رأسه على الرمال وأغمض عينيه، رأى الليل.

«أخيرًا الليل».

فتح عينيه ليتأكد من وجود الليل، احتواه الفراغ الأسود الهائل ونجومه المتلألئة.

«أخيرًا الليل والصحراء .. وأنت يا غريب»

ارتعش كل جسده بنشوة غامضة.

ثارت الرياح وحملت معها جلبابه .. راقبه حتى اختفى تمامًا. وتطايرت الرمال مع الرياح العاصف

* * *

«الآن يا غريب».

الجلمود

كتلةٌ أنا من محاجر الرخام. متفرد بوحدتي وحديثي. حاد الزوايا والجوانب أزلي الوجود، ناسيا بداياتي المبهمة في أزمنة سحيقة ضاغطة حارة.

عمري بلا تعاقب لليل أو نهار.

أتواجد وكفى!

تواجدي الأوحد هذا يحوطني بسعادة باردة برودة تواجدي نفسه .. سعادة ملساء حادة.

وفي لحظة عمر، هاجت الدنيا وماجت بروافع وبشر.

تحسسني البعض.

تأملني البعض.

داسني البعض.

وإذا بي في منحت فنان مثالُ، منتصبُ أنا بكتلتي الجادة المضغوطة محاولاً ألا تفر مني برودتي.

«خطر، خطر»!

محاولاً الاحتفاظ بصفائي السرمدي وسعادتي الباردة.

«خطر».

أتأمل قطع الرخام حولي. أراها مشوهة ممسوخة كحيوانات وطيور وبشر.

لم تعد جلاميد الرخام سعيدة مثلي.

كل تمثال داخله عذاباته الممثلة.

أتناساها؟

يدور النحات حولي. يتأملني ساهمًا. يتحسسني برفق. أحس نبض عروقه وسخونة جسده.

بعمري دفئه!!

أتهرب وأتمسك ببرودتي وأستشعر الخطر.

يتركني يائسًا.

يتشكل الرخام حولي وأنا مختبئ في كتلتي.

يرجع لي تاركًا كتلة في طريقها إلى التخلق ليدور حولي متأملاً. فأتأمل أنا – متجاهلاً إياه – التماثيل حولي فاقدة السعادة، محتفظة بلحظات ألمها .. وأخاف أخاف

إلى أن جاء اليوم، وبرق في عينيه المستحيل، أنامني برفق . رأيت جنوني في أحلام عينيه.

«خطر ومالي سوى أن أستسلم».

بريق عينيه وإزميله!

إزميله والطرقة الأولى!

تتناثر الشظايا وتموت مني.

أتشكل مرتقبًا ما سوف أكونه. أفقد زواياي وأحرفي الحادة. سعادتي تتطاير تطاير الشظايا.

وأتشكل يومًا بعد يوم.

أتشكل جسدًا آدميًا .. قدمان، ساقان، جذع، ذراعان .. وجناحان .. جسد لفتى لحظة سقوطه، بأجنحة شمعية ذائبة وريش متناثر، محطمًا على الأرض لحظة تلامسي مع الأرض، ارتطامي بها. لحظة السقوط والتلاقي.

أشتعل ألمًا إثر السقوط وزوال الحلم وذوبان شمع أجنحتي.

جسد متوتر العضلات – كل عضلة فيه – أثر النشوى والسقوط.

وإحساس بنتوء الصخر تحت ظهري العاري وجناحي المفرودتين

والألم الناري.

وما زال الإزميل يشكل. الرأس ملقى للوراء وشعر متطاير حالم ووجهه متجهًا للسماء.

وجهي بنظرة حالمة وفم باسم ما زال ينعم بطعم التحليق رغم عنف التردي.

وجه فيه راحة الحلم المستحيل، متذكرًا السماء ودفء الشمس.

الألم الناري وبقايا المستحيل.

وأتكون.

وأنضم إلى التماثيل الأخرى، محتفظا بعذابي الأبدي وبقايا كلمات متناثرة.

«أبتاه، أبتاه .. إني أنحدر بعيدًا».

وأسمع من السماء والزمان الضائع صوتًا ثاكلاً متلاشيًا.

«ولدي»!

الطوفان

«يآم! لقد اكتملت الألواح».

صاح بي أبي وهو يتفقد الألواح الجديدة.

* * *

«اهدأ: لم يأذن الرب بعد».

يتردد القول كصدى ضائع بين الجبال

«أبي من قبل العمر وأنت تدعو».

«اهدأ يآم، أصغرهم أنت يا يآم».

«أبي ألا تدعو الرب ليغرقهم بطوفان».

«لم تتعد العشرين، كمشعل ينير للمرة الأولى».

«أبي أنت المشعل ولكن الناس ضالين».

تناديني الوديان أهيم فيها. يهدهدني النهر.

«ألأغرقهم يا نهر»

«أبي! يا نوح! – قرون بلا عدد وهم أصنام تلد».

«أبي»!

«اهدأ يا أحب الناس إلى قلبي. لم يأذن الرب بعد».

«أيارب الناس هنا – الناس – في بلدتي – تناست النار داخلهم، تناست الشرر».

«أبي! أمات الشوق فيهم؟ أبي! أمت أنت داخلهم؟!».

«أبي، سنوني العشرون تأكلني ..».

أبي لم يعد يسمع. كل يوم أرجوه أن يسأل الرب الطوفان. كل يوم أرجوه أن ابن الفلك.

«أبي ألم تعد تسمع»؟

ولكن في عينيه ألمح البشرى

على ضفاف النهر ألمح البشرى

أدعو النهر أدعو ربك يا نهر لينقذني أدع الرب بالفيض.

أدعو السماء ألا أمطري.

ألمح في سحابها البشري.

* * *

الفلك أكبر من بلدتي.

«أنا سأعدك يا أبي. أنا أصغر الأبناء».

يعبرون يتضاحكون.

* * *

«نوح وأولاده سيغرقوننا بطوفان».

«بل اصبروا وسنرى»!

«أبي تدعو ويسفهونك الناس ألا عجل يا رب بالطوفان».

* * *

أرى نفسي على طرف الفلك ألمح بلدتي تغرق .. أراهم يتساقطون.

يرجعني صوت أبي.

«يآم لا تنس أن تتأكد من سلامة هذه الألواح».

* * *

الفلك أكبر من بلدتي.

يعلو ويعلو وكأنه أكبر من الطوفان الآتي.

«لقد خبل نوح وأولاده»!!

أشتعل نـارًا.

«أبي ألا أدعُ الرب ليعجل بالطوفان».

«اهدأ يآم واصبر يا حبيب. ما زلت أنادي «يا قوم الطوفان».

والباقي أصنام ..

«يا قوم الطوفان».

«لن يفهمها أحد يا أبي. علينا بالفلك».

«اصبر يآم».

«أبي لن يأتي معنا سوى الحيوانات والطيور. إنهم أصدق».

«أصبر يآم فالوعد لم يحن بعد».

* * *

أرتكن ليلاً على ظهر الفلك. ينير القمر. ستأتي أنت معنا، لن نتركك، فلتغرق الأرض ولتظل أنت هناك في سمائك .. معنا على الفلك.

أعد الليالي ولا يأتي الطوفان.

ننتظر الطوفان.

أين الطوفان؟

«لم يحن».

يتركنا بعض الناس. يهجرون الفلك شامتين فينا.

«ألم تقل يا نوح إنه الطوفان»؟

أمسك بهم، أتثبت يائسًا.

«لا انتظروا. لم يكذب أبي».

«أصمت يا سفيه».

«أبي! لم يبق معنا سوى القلة، ولكن لم تتركنا الحيوانات»

أنظر إليه.

أبي عيناك هما الصمت. عيناك هما الحقيقة.

وارجع لأحلامي.

ذات يوم. من أعلى الفلك سأراكم تفرقون وسأنادي الرب شاكرًا حامدًا.

* * *

أيام ولا يأتي الطوفان.

سنون ولا يأتي الطوفان.

«أبي! الفلك على أرض جافة»!

«أبي! الفلك يحن للماء. أحس بألواحه، أحس باشتياقها للماء وهي تقف عطشى على أرض يباب».

«أي فلك هذا يا نوح» ما زالوا يسخرون.

«أيبحر في الصحراء، أو لعله يطير في السماء».

اخرسوا لن تفهموا.

أبي أقول: عيناك هما الحقيقة سيأتي الطوفان سيأتي الطوفان.

* * *

وبعد ريح جافة شممت رائحة الأمطار.

وفي لحظة خلق انبلج الطوفان.

أقف أمام الفلك منتصرًا ها هو الطوفان. يأتي ها هو الرب يستجيب.

« يا رب ألا أغرقهم ألا أغرق هذه البلد».

ها هم يهرعون إلينا.

يقف أبي أعلى السفينة.

«أبي لن تتركهم يدخلونها، أبي لا تسمح لهم».

«أنها مشيئة الرب يا يآم».

«أبي إنه الطوفان أخيرًا لا تضعيه سدى».

«اهدأ يآم واصعد».

«أبي لم يعد لي مكان».

«اهدأ يآم واصعد».

ومن عمق الحقيقة أصيح.

«أبي لم يعد لي مكان، أبي سأظل هنا».

«لن أتركك تغرق».

«أبي كنت أدعو بطوفان. كنت أدعو أن يأتي الطوفان فيغرقهم ولكن الآن أدرك أنه أنا. أن الطوفان لي أنا».

«ستموت».

«أبي أريد الطوفان».

ينظر إليّ.

«أبى! أنا للطوفان، فلا معنى للحياة بعده».

«اصعد قبل أن يفوت الحين».

«أبي! ما معنى أن نحيا بعد أن يأتي الطوفان».

«اصعد» ..

أبى! عيناك هما الحقيقة ولكن لا أستطيع.

«اصعد».

آه لو أغرق الآن. أأكذب عليه؟

«أبي! سأحتمي في غار على أعلى قمة جبل».

ينظر إليّ. يفهمني يعرف أني لا أريد الحياة يعرف أني للطوفان.

ينظر إليّ مودعًا.

أبي! كنت أريد الطوفان وأنت هناك لتنقذنا. ولكن الآن أريد الطوفان فقط بلا نوح ولا فلك.

أبي. ها هو الطوفان.

أبي إنها سعادة الحياة في خلقي بالطوفان

أبي!

وأشير إليه مودعًا قبل أن يبتلعني الطوفان.

الماء الحرام

- 1 -

تسلل الخريف معلنًا نهاية الصيف دون أن ندري. لم ندر إلا والدرب يعيش في ضبابه الرمادي، وأصبحت الحارة كلها درجات متباينة للون الرمادي. البيوت وبقايا البيوت، الشارع المبلط المتآكل، الدكاكين، الجامع العتيق الذي تهدم جزء منه فأصبح زاوية صغيرة .. والغرزة، الكل اصطبغ باللون الرمادي حتى الناس أصبحت وكأنها أشباح رمادية اللون، منها من يقترب من اللون الأسود ومنها من يخف لونه حتى لكأنه يتلاشى.

ظهرت لي الحارة كلها من مشربية غرفتي، فالبيت قديم بل هو أثري. حتى غرفتي من الداخل فقدت ألوانها، طفت بنظري على غرفتي ثم رجعت أنظر إلى الحارة كم أعشق منظرها هذا بتلك الدرجات اللونية المتناسقة. هبت نسمة خريفية باردة أرجعتني للواقع. أنا أحب الخريف ولكن هذا الخريف مختلف.

هذا الخريف تحمل رياحه إنذارات مبهمة. ترى كيف سيكون شتاء هذا العام؟

* * *

على مائدة الإفطار ليومي الأول في الجامعة استمعت لنصائح أبي وأنا شبه منصت.

– إنها مرحلة جديدة.

أتت الخادم بطعام الإفطار. أخذت تدعو لي بالتوفيق والنجاح. جاءت أمي بخطواتها البطيئة تردد نفس الدعاء. تذكرت أخي الأكبر دون سبب، تراءى لي كخطوات تجري. ترى أين هو؟

أعطتني أمي طبقًا ممتلئًا، تناولته شاكرًا، تأملتها قليلاً. تلاقت عينانا على حدود الزمن نفذت بعينيها داخلي. تهربت روحي واستمرت العينان تنظر ..

عيناها .. وحنانها القاسي. أنظر إليها وكأني أنظر لها منذ بلايين السنين بلا مكان يربطنا ولا زمان.

– أنت طبعًا تعرف الطريق لكليتك.

أدركت أن أبي يكلمني، وانتشلت عيني منها.

ترى هل يحبها حقًّا؟

ترى هل الواقع هو الحقيقة فعلاً؟ تتسرب أكاذيب الحقيقة إلينا لتنتصر علينا.

– نعم.

وجدتني أنظر علينا من عل ورأيتنا نحن الثلاثة على المائدة. عجبًا. إن مائدتنا عجيبة، إنها ثلاثية الأضلاع وكل فرد منا يجلس في جانب. ترى أين كان أخي يجلس؟ وتشككت لحظة في وجوده. أكان معنا فعلاً؟ أو ربما واحد منا نحن الثلاثة لم يكن موجودًا تلاشى الخيال وأثبتت الحقيقة وجودها. ولكن أين كان يجلس؟

* * *

– هنا.

اخترق صوت أمي حيز وجودي ورأيتها تشير إلى رأسي وأدركت أني أخافها.

سألني أبي: أما زلت تشعر بالألم في رأسك؟

ظهر الألم بظهور السؤال. ازداد الألم حده وأصبح كذبذبات متقطعة.

– نعم

تخللت عيناي خصلات شعره البيضاء ووجهه الأنيق. وألح على السؤال.

مرة أخرى، أحقًّا يحبها؟؟

ومع محاولات الشمس في اختراق الحاجز الرمادي، بدأ أول يوم في التجربة الجديدة، امتزجت الرهبة بالفرحة في تداخلات وتشابكات كالمشربية في غرفتي. ولسبب مجهول أحسست بالغضب. اجتاحتني موجة غضب عارمة لم تظهر لها علامات خارجية، كما أن هذا الغضب لم يؤثر على إحساسي بالفرحة وشعوري بالخوف.

ضايقني اتساع الجامعة رغم إعجابي به ورغم أنها لم تكن المرة الأولى لي في هذا المكان. أحسست بحنين غريب لأن يحتوني ضيق الحارة والدرب.

ازداد إحساسي ببعد الآخرين رغم وجودهم، انتشار الألوان هنا وهناك.

والتفاف الطلاب في جماعات متباينة الأحجام والأشكال.

صاح داخلي بقوة الصمت «ألم تروا أخي»؟

* * *

وفى الظهيرة ومع انتهاء اليوم الأول اختفت السحب وأصبحت الشمس ثقيلة والحركة داخلي بطيئة. ازداد إحساسي بالعرق عندما وصلت إلى الحارة. هبت عاصفة ترابية ومع لحظات الحنين التقت كل حبة تراب مع كل قطرة عرق وأحاطوني بهالة من اللزوجة والحرارة. لعنت هروب الخريف وتخلى السحب عنا. اشتد التزاق جلدي بجسدي وتراءت لي عوالم أخرى من ثلوج.

ومع دخولي الحارة رأيتها بجسدها المترهل – أمي – ووراءها الخادم تمسك بغذاء المساكين كما كانوا يسمونه. كانت تدور على فقراء الحارة بغذاء المساكين بحركتها الثقيلة التي ازدادت ثقلاً بلزوجة الجو.

اختبأت وراء أحد أعمدة الزاوية. عامود انهارت عقوده وتيجانه – وكأني أهرب بظله من الشمس. رحت أتأملها وكأني أراها لأول مرة. أخذت أحدد بعيني خطوطها الخارجية وانحناءات جسدها. امتزجت خطوطها من خطوط جدار البيت وكأنها جزء منه. ظهرت وكأنها صورة ثنائية الأبعاد. إن كل ما أراه يتداخل في خطوط وتكوينات ضوئية ورغم ذلك كانت هي محددة الملامح جدًّا.

أحاطوها في كل جانب صغارًا وكبارًا حتى كادوا أن يحجبوها. تراجعت قليلاً حتى لا يرونني فالتصق ظهري بالحائط المروري وأحسست بالبرودة وكأنها تتسرب من جسدي رغم أنها تتسرب إليه. ازددت التصاقًا بالحائط المرمري وتمنيت أن يحتويني.

«المحسنة أم المساكين».

قالها أحدهم – وكنت أعرفه – وهو يمر أمامي دون أن يراني – يأكل مما أعطته –.

أحسست بجوفي يتقيأ ورأيته يأكل ما أتقيأه.

أحسست بيد تطبق على كتفي.

«ادخل لتصلي؟».

شيخ الزاوية! ابتسمت دون أن أعي ففسر الابتسامة بموافقة. أخذ يدي برفق ودخلنا الزاوية معًا.

«أطال الله في عمر والدتك وأدامها صالحة خيرة».

حتى أنت!

* * *

من خلال جدران غرفتي وجدران جسدي أسمعهما يتكلمان، بل أسمعه هو يتكلم إذ إنها قليلة الكلام. فهي يلفها صمت له رائحة البخور، أشبه بغرفة خاوية ولكن يملؤها فراغ مشحون له قدرة وسطوة.

يكلمها عن الماضي في صيغة المضارع.

ألا يراها؟

«يوم تعارفنا الأول عندما شدوت بتلك الأغنية عندما أسكرت الناس بصوتك».

يذكرها بقمر تلك الليالي، ببائع الفل، بعازف العود.

عالم آخر يعيش فيه. أما زال حقًّا يراها هكذا؟ إما أنه يتخيل إما أنه أعمى. وفي رغبة عارمة وشوق بالغ تسللت لعينيه دون أن يدري، تناهى إلى سمعي لحن شرقي قديم كشف لي عن عالمه وعالمها.

ورأيتها .. رأيتها كما يراها .. رأيتها كما لا توصف .. رأيتها وعرفت لماذا توقف زمانه.

رأيتها والجميع ينظرون إليها بإعجاب رأيت الانبهار في أعينـهم.

ورأيتها .. ورأيته هو لم يتغير .. وجهة الوسيم ونظراته الحالمة.

وافتتانه بها.

اصطبغ المنظر برائحة وردية لها لون الورود، وانجذبت زهرة من يده لقدميها.

تداخل اللحن مع العبير في فتنتها الغامرة كلوحة خلدها الزمان على جدار اللا شيء وفي قمة افتناني بها، ازداد كرهي لهما.

* * *

ومع إدراكي لجنون وجودي تعرفت في الكلية على الأخرى دون أن أريد.

داعبتها روحي وأخذتها معها إلى عالمها الأثير. وقبل أن ألقي تحية الصباح وقبل أن تتعارف الأجساد أدركت أننا أصبحنا أصدقاء فاستدرت دون أن أنطلق بكلمة واحدة وتركتها دون أن نتعارف.

* * *

وعلى مشارف الصحراء تخلت عني روحي، نظرت إلى الصحراء بحب جارف. وعرفت أني على مشارف عالمي الخاص. رضى جسدي طائعًا إلى تحرير روحي وفي سرعة أسرع من سرعة دوران الأفلاك احتوت الصحراء روحي واحتوت روحي الصحراء. تسربت الرمال في جوانحها في بهجة وفرحة. وفي امتزاج لذيذ تصاعدت أنغام في اشتياق ولوعة. تناجيا عن قرب وعن بعد. تناجيا في لقاء وفراق. امتزجا حتى الحياة ثم انفصلا حتى الموت. وقبل الانفصال حاولت أن تجمع رمال أخي ولكنها لم تجده ورجعنا دون أن نجد له أثرًا.

* * *

تساءلا عن التراب الذي يغطيني.

– أين كنت؟

قالها أحدهما وربما قالها هما الاثنان. صرخت روحي وخرج الصراخ في كل مسام جسدي خرج الكلام قويًا عنيفًا خرج من كل مسام جسدي عدا فمي. ارتجت روحي دون أن يهتز جسدي.

– ما لكما. كنت أبحث عن أخي –.

أما ما نطق به فمي.

«في الجامعة».

«ومن أين أتى كل هذ التراب الذي يغطيك ويغطى ملابسك»؟

«صادفتني عاصفة ترابية في طريقي».

وتقاذفا كلمة «كاذب» دون أن ينطقا بها وصمتا.

هل أسألهم أين ذهب أخي؟

ثم قفز سؤال إلى ذهني «ألا يكونا قد قتلاه»؟

«أمي أتحبين القطط»؟

اندهشا للسؤال.

«لم»؟

«أردت أن أهديك قطة».

* * *

تحت إحدى شجيرات الحرم الجامعي تقابلنا أنا وهي – الفتاة الجامعية – رأت في عيني ما لا أستطيع أن أقوله. اقتربنا أكثر في بغضنا البعض. ابتسمت ابتسامة خفيفة وافترقنا قبل أن نتكلم.

* * *

وقبل أن أدخل باب بيتنا استوقفتني الشجرة الوحيدة في الدرب.

استوقفني لوجودها .. أدركت أنها موجودة. شجرة ياسمين جافة – عودها ناشف يابس، بلا أوراق خضراء ولا زهور. كنت أراها من قبل وكأنها إحدى العواميد.

استوقفني إحساس بائتماني لها. أحسست أني أنا وهي في توافق حيوي واضح ورغم جفافها أدركت أني أنتمي لعالمها أكثر مما أنتمي لعالمي. اقتربت أكثر وعجبت أن أشم رائحة الياسمين رغم جفافها المطلق وعدم وجود أوراق ولا أزهار.

وفهمت رسالتها لي .. إنها ترفضني ويرفضني عالمها.

* * *

في إحدى غرف بيتنا كان يعيش أخي. أين؟ لا أتذكر. صممت على أن أعرف، أن أتذكر. لقد غيرا كل شيء، أخفيا صوره، أخفيا ملابسه، أخفيا نايه، كتبه ولكنهما نسيا ضحكاته، أشجانه، أنغامه، دِفْئه .. أخفيا كل شيء. عداه – بحثت في كل الغرف بين تشابك الزخارف الخشبية في المشربيات والأصونة، في الزخارف العربية على الثريا والقناديل، بين أوراق الكتب القديمة، بين أوتار العود المعلق كزينة مغزية منسية .. في ثقوب الأبواب لا شيء.

أأتوهم وجوده؟ أأسألهما عنه؟

ثم أدركت خجلاً أنهما قد نجحا فعلاً في أن يجعلاني أتوهم عدم وجوده. لا!

لا! ذهبت إلى حيث القبو. البيت قديم وقبوه واسع عميق وقلما أن ينزل إليه أحد.

نزلت درجه بحذر وحيطة. أضاء المكان بكائنات من نور ونار .. ساكني القبو.

قابلوني بالترحاب .. تذكرتهم جميعًا. حكوا لي عنهم وعن لعب أخي معهم وهو صغير قبل أن ألعب أنا معهم وأنا صغير. تذكرتهم جميعًا .. سكان القبو ورغم إحساسي بالراحة معهم فلم أكن أنتسب إلى عالمهم.

حكوا لي عنها!، حتى هم يعرفونها! أخذوني لزمانها.

ذكرتهم بأخي. حكوا لي عندما كان أخي يقابلهم. يكايدهم أنه أنسيٌ يدبر لهم المكائد ويدبرون له المكائد. يخبئون السكر والأرز من أهل البيت. يطفئون الأنوار.

كيف كان يهددهم هازلاً بالماء والنور.

كيف كان يهددهم بأمي وأبي.

«ولكن أين هو الآن»؟

وقبل أن يجيبوا .. يأتي صوت أمي عاليًا بصداه المعدني وهي تناديني.

«ولكن أين أنت؟».

تختفي الكائنات ويذهب الضياء وأصعد درجات القبو ببطء وتعب.

* * *

- 2 -

الشتاء، وكأنه منذ الأزل. وكأن العالم لم يتركه يرحل قط. ازدادت البرودة وازدادت البرودة برودة، في الجامعة ازدادت الملابس وتجردت الأرواح. سنتكلم هذه المرة. فتأتي .. ازددنا اقترابًا ورغم كل استعداداتي ورغم كل استعدادها إذا بصوتي يأتي جافًا خشنًا. كلمات جارحة. خرجت الكلمات وأنا أستغرب لها. فما قلت هذا الكلام من قبل. كلام لم أفكر فيه من قبل. كل كلامي ذو مغز غير عفيف. اندهشت هي، وازداد اندهاشي أنا ورغم هذا لم أحاول أن أتوقف عن الكلام أصبحت الكلمات أشد قسوة وجرأة. تصلبت هي في مكانها من الرعب. ورغم كوني مرتعبًا مما يحدث إلا أن ضبطت نفسي في صميم عمقها وهي ترقص جزلا. ازداد الكلام جرأة.

- أنجرب معًا - ماذا أقول؟

كادت أن تتقيأ أمامي. أخذت تجري مبتعدة وأنا أقول.

«طظ سأجد أخرى غيرك».

وقفت مندهشًا مما حدث. أصابني الغثيان أنا الآخر.

وتقيأت كل حياتي أمامي.

* * *

«طظ، سأجد أخرى». وكأني لأول مرة ألاحظ نساء الخمارة أو الغرزة كما يحلو لأهل الحارة أن يسمونها. ورغم كونها تقع على طرف الحارة إلا أنها تتبع الحارة ولا يأنف منها أهل الحارة والعجيب أن الحارة يحدها الغرزة من جهة ومن الجهة الأخرى الزاوية، الاثنان – الغرزة والزاوية – لأهل الحارة وكأنهما مكملان لبعضهما البعض. وكأنهما حدود عالمهم، كأنهما سفارتان لعالميين آخرين معترف بوجود كل منهما من كل أهل الحارة فالغرزة والزاوية موجودان منذ الأزل ولا يتخيل أحد وجود الواحدة دون الأخرى ومعظم أهل الحارة من مريدي المكانين حتى لأكاد أشك في شيخ الزاوية.

ومع رجوعي من الجامعة وأنا أردد «طظ سأجد واحدة غيرك» وكأن كل همي أن أثبت رجولتي، كأن كل ما كان بيني وبينها لا شيء سوى رغبة لا معنى لها.

وفي استرخاءة مغرية رأيت إحدى نساء الخمارة وهي تجلس أمام الخمارة في الشمس هي تدخن. اشتعلت الرغبة داخلي بنظراتها الداعية واسترخاءها الداعر اشتعلت الرغبة لأنتقم منهن جميعًا .. وبنظرة هامسة اتفقنا على الموعد.

* * *

وكأني أثبت للكون كله أني أتبع هذه الحارة، دخلت الخمارة – دخلتها لأول مرة وبدخولي إياها أثبت أني ابن عريق وشرعي لهذه الحارة. كان كل أهل الحارة هنا. لم يدر أحد بي رغم أن دخولي حدث هام ولكن الكل كان مغلفًا بسحابة من الدخان واللاوعي.

أخذت أبحث بينهم عمن أعطتني الموعد. كلهن متشابهات حاولت أن أتذكر شكلها ولكن لم أتذكر سوى استرخاء جسدها. وأخذت أتساءل «ترى كيف سيبدو هذا الجسد بعد أن يتعفن بالموت، بعد أن يأكله الزمان وتغتابه الذكرى».

«أم المساكين أهكذا يسمونها».

ارتبعت وأنا أسمع الضحكة الخشنة العالية. إنهم يتكلمون هنا أيضًا عنها. حتى هنا.

ضحكاتهم تخنقني.

«ربه الزمان».

«عمرها فاق الآلاف».

«أزواجها لا عدد لهم».

«إنها قاتلة أزواجها».

«بنيت لها المعابد والقصور».

«كانت أجمل العرائس» ..

«أريقت من أجلها الدماء».

«أبناؤها يختفون».

«الواحد تلو الآخر».

ألا يصمتون. كل واحد منهم يدعي أنه يعرف شيئًا عنها. يزداد ضحكهم ضبابًا ويزداد المكان دخانًا. هذا يتكلم عن حسنها وآخر عن قسوتها، آخر عن رقتها.

«أنا أعرفها أكثر».

قالها أحد الصعاليك وهو يدخل من الباب وكأنه يعرف عمن يتحدثون.

«كنت أحد أزواجها».

«كاذب».

«إنها تقتل الأزواج».

«والأبناء»؟

«بل ترفعهم للسماء».

«الجنة».

«النار».

«ألا يصمتون»

«والأبنـــاء»؟

أأسألهم أين أخي؟ تنتحر الكلمات. تدخل إحدى النساء والجميع يتشاغلون بمداعبتها.

«كانت .. ...».

قالها أحدهم وماتت الكلمات قبل أن تولد ..

اقتربت عينان مني – عينان رأيتهما من قبل، وتذكرت الموعد وصاحبته. وقبل أن نذهب معًا تساءلت مع أول كأس لي:

«هل حرمت الخمر حقًّا؟ أم ترى حرم الماء؟».

* * *

وفي حجرتها أحسست أني أغرق في بحور من اللدائن. أحسست بالعجز أحسست كأني أحتوى. بأني أمتص، أتعفن: نهضت متهالكًا ولكن روحي كانت ترقص جزلاً.

«فلندنس كل المحرمات».

«فلندنس كل المحرمات».

امتلأت بشعوري هذا، أخذت أرقص عاريًا وهي تنظر لي بعجب. عجبت أنا لإحساسي المزدوج، إحساسي بانهزامي وانتصاري في نفس الوقت. بعجزي وقوتي، خشونتي ورقتي، الجنة والنار. النعيم والعذاب.

«تذكرني بأخيك».

تجمدت السوائل داخلي.

«تذكرني بأخيك».

إذًا لقد كانت تعرفه. تكلمت قبل أن أسألها.

«نعم كنت أعرفه، عرفته ليلة واحدة فقط، الليلة الأخيرة. الليلة التي اختفى بعدها ستسألني ما شكله، ستسألني كيف كان يتحدث. أتعرف أنه أكثر ما يكون شبهًا لك، كأنه أنت وكأنك هو. أتعرف

أنه أخذ يرقص عاريًا مثلك. أتعرف أنه كان شاردًا مثلك عندما قابلته. ولكن آخر ما قاله بعد أن ودعني «يجب أن ندنس كل الحرمات» ترددت الكلمات داخلي وكان صدى الأكوان كلها بين ضلوعي.

«فلندنس كل المحرمات».

* * *

أحسست ببروده الفجر عند خروجي من عندها. حاولت عبثًا أن أختفى منه في ملابسي لم أكن أريد أن أرجع البيت فالليل بديع ولكن البرودة شديدة.

وعلى بعد رأيت شيخ الزاوية، إنه ذاهب لكي يؤذن لصلاة الفجر. تقابلنا في وسط الدرب.

«السلام عليك .. بارك الله فيك يا ولدي. ستصلي الفجر أليس كذلك؟».

«بلى».

ألم يلاحظ أنني أسير في الاتجاه المخالف.

«بلى» – قلتها لثاني مرة وأنا أمشي وراءه. نعم ما المانع.

«فلندنس كل المحرمات».

* * *

ودعني شيخ الزاوية عند باب البيت. تسرب النور من خلال مشربيات المنزل وأنا أدخله. نور الفجر. نور يوم جديد أحقًا هو يوم جديد له.

وجدتها تنتظرني على أحد الأرائك العربية في البهو. اقتربت منها. أخذت أنظر إليها، وهي تتحول إلى أشكال هلامية ودرجات لونية واختلافات عطرية.

لم تتحرك وظلت تنظر إليّ.

نعم أنا ابنك، أنا منك!

نعم أنا لا أستطيع أن أنتسب لأخرى، حتى لو حاولت. لقد هرب أخي لأنه كان يمتلك الشجاعة والمقدرة أما أنا ضعيف.

أين أبناؤك؟

ضعفي يقتلني. أموت كمدًا لأني لا أراك كما يرونك. أموت لأني لم أرك كما رأوك عالمي غير عالمك. دعيني أرحل، ولكنك تعلمين أني لا أستطيع. قولي سر قوة أخي كيف استطاع أن يختار وأن يرحل! إلى أين رحل؟

ازدادت حدة النور.

اقتربت يداي منها، وأخذ النور في الازدياد، اقتربت أكثر لم تجفل. ألا ترى في عيني الشر؟

ظللت أطبق بيدي على عنقها. تمنيت أن أطبق عليه بلايين السنين، ظللت أزيد من قوة ضغطي على عنقها ولكن النور أخذ يقل سريعًا، ظللت أزيد من ضغطي عليها ازداد النور ضعفًا وعتمة وأخيرًا فتحت عيني لكي أتأكد من أني ما زلت أضغط على عنقها. رأيت يداي تضغط على عنقها ولكنها هي تضحك، تضحك، رأيتها تضحك ورأيت أخي يقف خلفها وهو يضحك أيضًا

ظللت أضغط أكثر ولكن هي ظلت تضحك أكثر.

أكرهك لماذا لا تموتين؟

سأقتلك .. سأقتلك.

ظلت الظلمة تزداد والهواء يقل وأنا أحاول أن أقاوم ولكن أخذت أفقد الأمل تدريجيًا. نفذ الهواء وأظلمت الدنيا تمامًا ولم أعد أعي بشيء سوى ضحكاتهما – هي وأخي – ضحكاتهما الساخرة.

الخائنة والعدم

أرتمي على مقعدي مرهقًا تمامًا، شاعرًا أن الحياة تتكسر ببطء، سائحة ألوانها. لا أفكر في شيء، مجرد تسرب للحياة. عبثت يدي بقلم أمامي خاطه رموزًا وكلمات.

«خائنة».

انزلقت الكلمة ساقطة على عقلي محدثة انفجارًا صغيرًا في أول الأمر، انفجارًا كدت لا أحس به ولكن بعد برهة شملت الموجات المنبعثة منه عقلي كله.

لم تعد كلمة مكتوبة أمام عيني.

واجهتني الكلمة ككون مبهم جديد، منبعثة كحال.

إذن لا مهرب فبعد أن واجهتني الكلمة عليّ أن أواجه نفسي.

«أخائنة هي»؟

أمسكت الورقة التي كتبت عليها دون أن أشعر «خائنة».

هذا ما يؤرقني إذن من فترة. اندهشت لهذا الأمر. كيف استطاع عقلي أن يدفنها في هذا العمق المظلم؟ ها هي يداي تخدعني وتحرر الكلمة – تحرر الـ «حال» من سجنها في لا وعيّ.

حاولت أن أدافع عنها ولكن ها هو الحكم مكتوب ومنطوق ومحسوس.

«خائنة» لم؟

تشكلت أمامي من امتزاج حبي لها؟ من ضغط الكلمة عليّ، من كرهي للخيانة.

تشكلت جميلة، رقيقة، ناعمة .. ناعمة نعومة مرعبة كهدوء أسبق لعاصفة.

لا! بالله كيف تكون خائنة!

لا مفر، تشكلت بكل خلجاتها.

امتلأت الغرفة بأطيافها. كل يدل على خيانتها. هذا طيفها وهي تخفي رسالة وهذا وهي تضع سماعة الهاتف وهذا وهي تقوم بلا مبالاة وذاك وهي تحول رأسها عني ببطء فاجر.

أخذت الأطياف تحوم حولي وهي ترقص رقصة مجنونة. عدة آلاف من أطيافها تحرقني، تخترقني كموسيقى صاخبة مجنونة.

تزداد حدة الرقصات وتزداد الموسيقى صخبًا .. ويبتسم كل طيف.

أطياف داخلي، حولي، في اللانهاية. الغرفة ككون منفجر عن أطياف لها.

أردت أن أصرخ فيها «خائنة» تيبس الصوت داخلي.

تحملق في وجهي، تسحب مني الأنفاس. أختنق ...

ينفتح الباب وتدخل هي فانجذبت لها نورًا كل أطيافها بحنين العودة لخالقها ابتسمت ابتسامتها الساحرة الشهيرة.

اقتربت ببطء أشبه بحلم واجهتي انحنت ولثمت شفتي.

«تبدو مرهقًا جدًّا».

نظرت إليها وفي محاولة أخيرة حاولت دفن الكلمة وإرجاعها لتغل في إحدى سراديب لا وعي.

اللعنة عليك يا قلب.

القلب ذاب بليل الغيرة مواجهًا كون بلا ثنائيات عشقية. فلننتظر بلا حواس.

آه يا قلب تحبها. يا قلب أأقتلعك؟

وقفت خلفي وأحاطتني بذراعيها. أحس بشفتيها تلامس شعري وأنفاسها تتخلله. أناملها تحدد معالم أذني.

ينفجر قلبي «أحبها» فتنفجر الكلمة أمامي «خائنة».

«خائنة» تتراقص الكلمة على الورقة أمامي وأكتشف أنها ولا شك تتراقص أمام عينيها أيضًا. مدت يدها والتقطت الورقة.

أألمح رعشة خفيفة تعتريها؟ كم أود أن أرى عينيها الآن. أتخبرني بالحقيقية؟ أتكذب وتريحني؟

سحبت يديها برقة من ورائي. تركت الورقة تسقط على المكتب بكل إهمال.

واجهتني بابتسامتها الساحرة وكان لا شيء يعنيها.

لا مفر إذن، فلنلعب اللعبة!

لقد قبلت العمل بالخارج.

أخيرًا حسمتَ الأمر.

ما رأيُكِ؟

قد يكون ما نصبو إليه نحن الاثنان.

أتريدين أن أرحل؟

يأكلك الملل، قد تسترد إحساسك بالحياة.

تبتسم مكملة حديثها.

سنرحل سويًا.

أتنفين التهم عنك أم تختبرن جديتي؟

لاعبًا تلك اللعبة القديمة قدم آدم وحواء.

سأسافر وحدي أولاً حتى تستقر الأمور هناك ثم أرسل إليك لكي ..

كما تريد.

حتى قبل أن أكمل حديثي!

علينا أن نبلغ الأصدقاء برحيلي.

ما رأيك في إقامة حفلة وداع صغيرة تضم الأصدقاء؟

تنظر وتبتسم. تريد أن تقيم حفلة لرحيلي.

* * *

في الحفلة أراقب كل المدعوين. أيكون أحد أصدقائي، أحد أزواج صديقاتها؟

أراقبهم كلهم. أود أن أتخلى عن الفكرة كلها.

أي دليل؟ أنظر إليها أتساءل أتكون قد دعته؟

«يمرح في عينيك العشق».

تصلني كلمات إحدى صديقاتها. أجدها تنظر إليّ. لا! أكذب كل كياني.

إنها تحبني أنا. عشقها لي أنا.

أتت إليّ وجلست بجواري دافنة رأسها الصغير في صدري.

تعلن حبي لها وحبها لي. ينتفض جسدي بحبها. ألغي خطتي في مراقبتها.

«خائنة».

«خائنة».

أخضع «فلنستمر إذن. أراقبها زاعمًا أني مسافر».

* * *

ومن المطار عائد وحيدًا بعد أن ودعتني ظانة أني قد سافرت. أفكر فيما سوف يتأتى. أستأجر غرفة في فندق صغير في حي شعبي قريب من المنزل.

لا أغادر غرفتي واضعًا صورتها بجانبي. أوصي صبي الفندق أن يأتيني دائمًا بالصحف. لا أترك سطرًا وكأن الخبر سيعلن على الملأ.

أنزل إلى بهو الفندق. أمسك الهاتف. أسمع صوتها. ترد.

ترى هل تنتظر منه حديثًا. أتقول اسمه؟

ألو.

لا أرد.

ألو.

أضع السماعة.

أرجع إلى غرفتي. أغمض عيني على صورتها.

ترى أأعرفه؟

يستأذن صبي الفندق في الدخول. أرى في عينيه فضولاً. إذن يكتنفني الغموض. ألاحظ نظرات صاحب الفندق كلما هبطت لأتكلم في الهاتف.

أسبوع يمر ولا شيء سوى اللعب بالمكالمات ولا شيء يفيد.

تكفي هذه المدة.

أجلس في الكافتيريا المقابلة لبيتنا. أحتسي الشاي ببطء. يتبخر اليوم سدى.

عشرة أكواب شاي وأربعة فناجين قهوة وغذاء.

سدى. أشعر بالغثيان. أعود لفندقي. أصعد السلم المتآكل بسرعة بين نظرات الريبة لصاحب الفندق وصبيه.

يبادرني بصوته – مالك؟

أكمل صعود ولا أستدير – مجرد تعب.

أدخل غرفتي، أتقيأ وأستريح.

وفي صباح اليوم التالي بعد فنجانين من القهوة. تظهر وكأن الكون تجلى فجأة عن روعة مخبأه.

أتأمل أناقتها وطريقة سيرها وهفهفة طرف فستانها.

أدفع الحساب وأخرج لأتبعها. وعلى مرمى البصر يفنى ما حولي. مجرد أطياف حولي وحولها.

وأترك الماضي كله ورائي وأشارك روعة المجهول، روعة ما سوف يتأتى.

أتخيل وجودها بجانبي وأنا سائر في هذا البعد المجهول. أتمنى أن أناديها أراها هناك. في المستقبل ربما في الثمانين من عمرنا.

أراها جانبي.

أراها.

لا أراها! فقدتها في زحام أحلامي.

أستدير عائدًا ناقمًا عليّ وعليها. الحب وأي حب وكأني أراها.

أرجع الفندق متعبًا مرهقًا.

أرتمي على فراشي. أراقب النقوش البارزة في سقف غرفتي.

«أنت هناك».

يأتي الصوت أمرًا أنتفض من نومي غارقًا في عرقي.

هربت الليلة. أواجه ضوء النهار.

أهبط السلم جاريًا. أعدو وأعدو ولا نهاية للمسافات.

أقترب أقترب أراها هناك عند انعطاف الشارع متأبطة ذراعه.

«خائنة».

أقف لاهثًا. هي دون غيرها. أراهما من ظهريهما.

متأبطة ذراعه.

أتأمله. ترى من هو؟ أشعر أني أعرفه. إنه يذكرني بشخص ما.

من؟

هممت أن أعدو لألحق بهما.

يجذبني شخص من ذراعي.

«إذن أنت لم تسافر فعلاً».

أحد الأصدقاء. مبتسمًا. لماذا يبتسم الجميع؟ أراهما يبتعدان.

ولما لم أنطق قال «كم قلت لزوجتي لقد خيل لي أني رأيتكما أنت وزوجتك منذ ثلاث أيام ولقد دهشت جدًّا. لم تسافر؟».

«لم أكن متأكدًا ودهشت لعدم سفرك ولكن عندما اتصلت زوجتي بزوجتك أخبرتنا أنك قد أجلته في آخر لحظة».

الخائنة تعلل وجودها مع الآخر بعدم سفري أنا.

خائنة.

«مالك؟ لماذا لا ترد أتشعر بتعب ...».

لا أسمع ماذا يقول.

أتركه وأعدو وراءهما.

أتظن أنها ستخدع الآخرين. أعدو. أراهما مرة أخرى. ظهريهما.

تريدين أن تمحي وجودي. أعليّ أن أموت كمدًا ضائع الكينونة بجسد هلامي متعفن؟

أقترب أكثر.

ناديت وقفا. التفتت ببطء. نظرت إليّ بابتسامة غامضة.

اقتربت، اتسعت ابتسامتها وكأنها تحذرني.

اقتربت أكثر.

أمسكته من ذراعه بعنف. جذبته لكي أرى وجهه.

التفت إليّ وواجهني كاملاً.

ظللت أحملق فيه أتأمل ملامح وجهه. أتأمل عينيه، فمه المزموم المبتسم الساحر. يرن في أذني سؤال لماذا يبتسم الجميع؟ ثم رأيت أثر الجرح الغائر بجانب أذنه اليمنى. تذكرت الجرح وسببه مدركًا الآن أني أنظر لملامحي أنا.

أدركت أنه أنا الذي يسير معها – مع الخائنة.

وعندئذ فقط أدركت أن لا أهمية لشيء واحتواني العدم.

القيود والأفعى

تأمل جروحه. مر عليها بأصابعه. تأمل لمعان النسيج الجديد. ها هي الجروح تلتئم. يغتاله الفزع. تلتئم الجروح ليبدأ العذاب مرة أخرى. أوهمه الفزع بأصوات أحذيتهم الصلبة على أرض الممر الممتد إلى زنزانته.

«لا. أأبدأ من جديد»؟

أرهف السمع. اختفت الأصوات ورجع الممر لصمته الموحش المحبوب المطمئن.

نظر ثانية إلى جروحه الملتئمة. أسند ظهره على الحائط البارد مواجهًا باب الزنزانة ولكن أين المفر. جروحه تلك تأكد له أصوات أحذيتهم كحقيقة صلبة لا ريب فيها. برتابة وعنف تقترب أصواتهم المعدنية. تنبض الحوائط حوله بهذه الرتابة الصوتية وكأن الزنزانة كلها أصبحت حية كقلب نابض واجل.

انكمش داخله. تكور حول نفسه ولكن أين المهرب. شاخصًا إلى الباب بعينين متحجرتين.

«سيأخذونني»!

تسربت همهمات غامضة عبر الحوائط تشهد انفصاله عنها.

«في هذه الزنزانة المظلة الباردة أكون أنا. ولكن من أنا» تناسى هويته لم يعد يسأل فهم لا يردون نسى كل أدوات الاستفهام حتى دهشته الداخلية تساقطت بمرور الزمن.

«أيمر الزمن فعلاً»؟

من هؤلاء؟ لم العذاب؟ متى الخلاص؟

تفككت لم للام وميم بلا أدنى ترابط وتهاوت متى للا حروف.

رنت المفاتيح مصطدمة ببعضها تغتصب باب الزنزانة .. يستسلم لها الباب برخاوة ونذالة.

انفجر قلبه برعب دام.

«حتى الحوائط تكرهني»؟!

انفتح الباب هاتكًا ظلمة الزنزانة.

لم ير منهم سوى أحذيتهم الغليظة ذات الحروف المعدنية. وجوههم لم تعد تهم. في المرات الأولى وهو يحاول أن يسألهم. كان يرنو إلى وجوههم عله يستشف منها أي خبر. أي تفسير لما يحدث. ولكن الآن بعد هروب الزمن ترك أذنيه وعينيه للضياع، أصبحت أعضاء لا رغبة له في امتلاكها.

أخذوه .. جروه على أرض الممر الطويل إلى «هناك».

وبحركات عنيفة ولكن سلسة جردوه تمامًا من ملابسه. تذكر المهانة والخجل التي استشعرهما في المرات السابقة. لم يعد يهمه أن يقف عاريًا أمامهم وكأن الجسد تلاشى.

يكبلونه من معصميه ومن كاحليه، يصلبونه في الهواء. تكاد السلاسل تسلخ جلده.

أي جسد هذا الذي تلاشى!

مع لسعة السوط الأولى يستعيد جسده.

«لم يا جروح تلتئمين»؟!

كلما التأمت الجروح حن السوط للجسد ويظهر الألم الجسد من جديد.

السوط لا يكل والجسد يستسلم لم تعد للآه معنى، الآه خيط دم يجري على ظهره، على صدره، على فخذه، على ساعده، على ساقه، ومن جبهته ينبع نهر دافئ طعمه في الفم أصبح مألوفًا.

«لم تعد للآه معنى».

تحاول الأسئلة أن تطرح نفسها مرة أخرى.

يهوى السوط خالقًا للألم معنى، ناسفًا ما تعلق من أسئلة.

السوط في تحالف مع السلاسل. حتى السلاسل بأصواتها الرنانة تتحالف مع صوت السوط.

وينهك الجسد ويحاول أن يضيع في غيبوبة واعية. غيبوبة مترصدة لما سوف يتأتى، إنه يعرف الآتي. يخشاه. يرهبه.

يخف السوط يسمعهم ينسحبون – هم بأحذيتهم – يغلقون الباب عليه كل العذاب الماضي لا يضاهي ما سوف يتأتى.

ما زال صدى غلق الباب يتردد في كينونته.

هناك في ركن ما يراها من بعيد. دائمًا كعادتها. وكأنها تعرف أنه الآن دورها الخالد، فتبدأ في التحرك، تبدأ في الزحف.

يظن أنه ألف كل شيء .. العذاب .. الألم .. الجهل .. الرعب ... ولكنه أبدًا لا يألفها.

لحظات الرعب السرمدي تبدأ أزلية محاطة بسيادم من مجهول غائب.

يرى الأفعى في ركنها المعهود تتحرك بنعومة هلوع.

يتوتر جسده كله. تتقبض عضلاته شادة معها أغلاله – لم يعد للسلاسل صوت ولا رنين، يحس بضغط المعدن على معصميه وكاهليه ولكن ما معنى الألم الآن وهذه الأفعى تقترب ببطء فاجر.

«ألم تعرفينني بعد»؟!

حاول أن يألفها لتألفه. في التواءات مرنة ساحرة تقترب.

«أي رعب هذا»؟

تنتصب أمامه. يحاول أن يبتعد عنها بالقدر الضئيل الذي تسمح به أغلاله.

تتابعه الأفعى كلما تحرك.

يجذب نفسه إلى اليمين تحرك رأسها لليمين يقوس ظهره فتهم للهجوم عليه يهوى يسارًا تتابعه يسارًا. يغامر ويحاول أن يقترب منها تتسمر منتصبة.

«لم الأغلال ولم الأفعى»؟

تناسى حتى السؤال قبل أن يطرحه عقله المشلول بتلك الرقصة مع الأفعى.

«كرقصة بدائية ذات طقوس غريبة ومقيتة».

يتعب، يحاول الانهيار تمنعه القيود والرعب الذي يربطه بالرقص الحائر مع الأفعى.

تزحف ثابتة على الأرض مقتربة منه. العرق والدم يمتزجان في سعير أحمر دام.

تقترب منه جدًّا. لم تلدغه من قبل في أي من المرات السابقة.

«ولكن ما معي الأمان»!

تلمس قدمه اليسرى. يشعر بنعومتها تسري كخدر على ساقه. تمتزج بأنهار الدم المراقة على جلده. يشعر بها في جروحه، في أخاديده تلتف على ساقه تزحف على بطنه، صدره، ظهره، ذيلها ما زال محاصرًا لساقه. تحتويه وكأنها تمتصه. يشعر بنشوة شبقية عجيبة. يستعر جسده كله بالرغبة والعنف والألم، وكأن عقله المشلول برعب اللحظة يطلق الزمام لجسده الممزق المنهوك ليعربد بحرية سافرة.

وبجنون العالم الماضي والآتي تنفجر لحظة العشق الدامي من عالم متنافر باهتزازات كونية غامضة المدى ضائعة اللون.

«أتطول لحظة التوحد المتسامي»؟!

تسقط الأكوان في عمق الحقيقة وتنتهي لحظة التلاقي.

تزحف الأفعى ببطء على ذراعه المشدودة للحائط بالسلاسل. تنحسر عنه في بطء مودعة إياه بطرف ذيلها، تاركة زمن بلا أزل أو أبد.

لا يتركها، يحتويها بعينيه. يراها على السلاسل متجه للحائط. حمراء اللون بدمائه ساحبة روحه معها.

يسحب الألم جسده. يشتعل رسغاه بجروح الأغلال، حيث إن يديه تحملانه الآن لسقوط جسده من الإنهاك باللذة والألم والرعب.

يتابع الأفعى عائدة إلى ركنها المفضل.

يدرك أن دورها قد انتهى الآن في هذه المرة.

ومن عالم الإدراك يحس بهم يفكون قيوده، يسحبونه إلى زنزانته. يلم رطوبته داخله ملطفًا بها جراحه.

قابعًا في زنزانته، مرتعبًا أن تلتئم جروحه، متخيلاً أحداث المرة القادمة وهم يجلدونه وهم يسحبونه والممر الطويل و«وهناك».

وهم يكبلونه وهو يبحث عن الأفعى في ركن الغرفة.

وهو يتمنى ألا تكون موجودة. ثم وهو ينتابه الرعب لوجودها.

يتمنى عدم وجودها يتمنى عدمها ولكن الرعب يجتاحه عندما لا يجدها فيقف مواجهًا نفسه وحيدًا مكبلاً في غرفة بلا أفعى فيها.

جدار الأمراء

الجدار.

اقتحم شعوره فجأة – الجدار – كائنًا منذ طفولته .. رآه مرات ومرات تخلل إحساسه. غزته روعته المبهرة دون أن يرفض أو يتأثر.

تركه، أهمله – لا أرى ولا أهتم بك يا جدار.

(تمضي السنون وكأنه يراه لأول مرة).

الآن يغزوه الجدار بعنف وقوة وجلال. شامخ أعلى من السماء نفسها.

أجمل من ليل القمر.

الجدار.

أيتبدل الجماد؟ أنتبدل نحن؟

الجدار كائن هناك على حدود البلدة. حوله الأساطير وغبار الزمن.

يسمونه أهل البلدة «جدار الأمراء».

لم؟ لا أحد يعرف.

الأساطير حوله ساحرة البعد والمعنى.

وها هو يقتحم كيانه فجأة.

«أنا الجدار».

وقع في غرامه تعجب من دوامة مشاعره. خاف. ارتعب – هرب.

يجري مبتعدًا عن الجدار مبتعدًا عن مشاعره.

«أنا الجدار».

كالمسحور يهجر الدنيا والأهل والأصحاب. يدور. يغيب. يرجع. يحتار.

وقبل أن يهمس لأمه «أحب الجدار» نهرته.

وقبل أن يهمس لأبيه «أحب الجدار» طرحه أرضًا.

وقبل أن يهمس للصديق الأوحد «أحب الجدار» .. خانه الصديق وتناقلت البلدة – مقطوعة اللسان – خبر حبه للجدار بين هازئ وساخر ومتهمًا بالعته.

وعلى حدود البلدة – هناك على مشارف الصحراء – وقفا أمام أحدهما الآخر.

الجدار بأزليته بطوله ونقوشه.

وهو بطفولته وسذاجته وانبهاره.

«أحبك يا جدار الأمراء».

صاح فيه عند مشرق الشمس «أحبك يا جدار».

لم يسمع سوى:

....ار، ....ار.

صاح فيه عند مغرب الشمس «أحبك يا جدار».

أهداه الصدى «يا جدار، ...ار، ...ار».

يا جدار أسمعتني؟

يا جدار. ألم تنادني؟

لم يرد الجدار.

اشهد يا قمر الصحاري لا يرد الجدار.

اشهدي يا صحراء الزمن لا يرد الجدار.

يصرخ «يا جدار» حتى الصدى مات.

ولكنه لم يتغير وقال لنفسه «قدري أن أحب الجدار».

وهناك أمام الجدار وقف مسحورًا مبهوتًا. تأمل الجدار بزخارفه ونقوشه الأسطورية قرر أن يلمس الجدار، أن يحسه. مد يده بخوف ووجل. مشتت الأحاسيس مبهم المشاعر – لمسه – تحسسه – حاول

أن يبلغه مشاعره ينقل له حبه المبهور وفي لحظة التلاقي الأولى شعر بحب الجدار كلحظة خلق رائع. خاطفة كالموت أبدية كالحب نفسه.

أين كنت يا جدار؟ أحقًا كنت دائمًا هنا؟ أحقًا كنت في هذه البلدة؟ لِم لَم أحبك منذ أزلي؟ آه من العمر الضائع.

ولكن لحظة التلاقي منتهية قبل البدء وها هو الجدار بارد أملس.

«أين أنا منك يا جدار»؟

أيام وأيام تمضي.

«أنسيتني يا جدار».

والأحجار ناعمة ملساء باردة.

«هبني حبك يا شبح الماضي».

يرتعش بالحب والرغبة والألم يقترب أكثر من الجدار. يلتصق به. «أهي لحظة التلاقي الحقيقية»؟

يرتعش ويسقط مغشيًا عليه، فيجد جسده محمولاً للبلدة مبتعدًا عن الجدار. «وكأنك ترفض يا جدار».

مهرقًا يصرخ بلا حس «إليّ يا جدار».

يهذي مرهقًا، مشلولاً في مرقده ناظرًا لباب حجرته «احضر أرجوك».

غير قادر على الحركة ولا الانتظار ففَقِدِ في المكان.

أيام وأيام راقدًا مشلولاً بأحلامه.

أريد أن أحس نبضاتك الباردة في يا جدار.

«يا جدار».

وفي ليلة أتاه النداء من الضباب.

«أبحث عني الآن».

وفي إغمائه يستمع إلى الآخرين وخبر العاصفة الترابية الآتية من الصحراء.

يعاوده النداء.

«أبحث عني الآن».

الليلة: العاصفة: الخوف والجسد.

الليلة: التلاقي، التلاحم.

هاجرًا فراشه مستعيدًا قوته، يفتح بابًا مواجهًا التراب والعاصفة.

البلد المهجور. البلد الفار من العاصفة الآن له هو فقط.

أطاحت به العاصفة. لم يفقد حبه. متجهًا دائمًا للجدار. هناك.

«سألقاه».

تقاومه الرياح العاصفة.

«سألقاه. إنه النداء».

يتوه في دوامات العاصفة يقاوم يقاوم.

«سألقاه».

وفي لحظة الغضب العظمى للعاصفة وصل له.

«ها أنا ذا»!

يخاف أن يرفضه الجدار.

«ها أنا ذا».

يرتج الكون. يهرب من العاصفة للجدار يدفن نفسه في الجدار بلهفة وحب وشوق.

ويتخلل الجدار روحه.

ويغيب الكون. كله تاركًا ذكرى لصبي أحب يومًا جدارًا على مشارف الصحراء يسمونه الناس «جدار الأمراء».

......

……

……

……

……

……

لكنه ندم!

والنجم إذا هوَى

للكُرهِ ضياؤه. الآن فقط سطع لي شعوري تجاهه، تجلى لي كون عن كره خالص، متجرد من ضعف زيف الحب والصداقة. كره كامل مطلق.

تجلى بقوى كادت أن تحطمني، كانفجار نفسي، انتشيت ..

وكأني أجد إلاهي أخيرًا. احتواني شعوري وكأنه الإيمان، وكما احتواني تسرب مني ليملأ الحجرة، السماء، والكون.

نعم، الآن فقط وجدت ما أؤمن به، وجدت إلاهي وإيماني، ولا إله إلا الكره!

* * *

أي قدر جمعنا؟ أيكون قدره ... أو ربما قدري أنا؟

ترى لم جمعنا القدر معًا؟ وكيف؟

ألف من الأسئلة.

أهو الفقر؟؟ لم أعد أذكر ولم يعد من الممكن أن أتذكر.

ومنذ متى ونحن نعيش سويًا؟ وفي نفس هذه الحجرة التي تعتلي إحدى بنايات المدينة العالية.

تلح عليّ الأسئلة.

أود أن أتذكر. أحاول بعنف كرهي له سأنبش قبور ذاكرتي الضعيفة وسأكسر شواهد الخوف.

* * *

وتتداخل الحواس. خضرة متحركة وجلباب أزرق وقدمين متدليتين. رائحة قذرة عطن وعفن وبقايا بيض يتساقط، الأذن تشكو، «بيض وسميط» تقال بصوت قبيح أجش. لعاب يسيل. لسان يتذكر طعم الأكل ولا أكل.

الأنف تسبح فيها ذرات الغبار. حرارة ولزوجة الجسد القابع بجواري .. .. واهتزازات القطار؟

* * *

أين؟

القطار للمدينة.

* * *

بدأني الحديث.

أنسى كلماتي له ولا أتذكر إلا كلماته لي.

«المدينة أليس كذلك»؟

«للدراسة؟ رائع»!

«نحن إذن في نفس الكلية».

«ولكن أنا أكبرك بعام».

«لم تعش في المدينة من قبل».

«عالم جديد؟ ولم الخوف»؟

أرى ضحكته الآسرة ووجهه الباسم.

«حتمًا سنصير أصدقاء».

دخل عالمي دون استئذان، وبسلاسة أدخلني عالمه. اندفعنا نتحدث.

روى لي عن حياته الكثير.

«حتمًا سنصير أصدقاء».

وقبل أن نغادر القطار، كنا قد أصبحنا أصدقاء، أو هكذا خيل لي.

* * *

وعلى رصيف المحطة، حاملاً حقيبتي، قبض على ذراعي بقوة وقال:

حياتي سلسة. أسكن في حجرة صغيرة أعلى إحدى البنايات، من الممكن أن تتسع لنا نحن الاثنين إلى أن تجد مسكنًا مناسبًا.

وقبل أن أجيب قال.

«لا .. لا تخجل .. كما قلت لك حياتي سلسة وبلا تعقيد .. هيا هيا ..».

* * *

ومن مسكنه أكاد أرى المدينة كلها.

«من الممكن أن تتسع لنا إلى أن تجد مسكنًا مناسبًا».

ولم أجد – ولم أكن أريد أن أجد ولم يعد يريد مني أن أرحل.

* * *

ترى كم من الزمن مضى ونحن معًا في هذه الغرفة؟

أنتِ أيتها الغرفة تشهدين علينا.

لم تتركينا. أنتِ كما أنتِ.

كم من الزمن مضى وأنتِ تعرفينني؟

الزمن خارجك.

وأنت دهرك لحظة

* * *

وبمعاشرتي له – إنساني الأول – عرفته وعرفت نفسي.

يظنني غير قادر على الكره. الغبي، ألا يشعر بما أكن له من مقت؟

أأنا ماكر إلى هذه الدرجة؟

أم ترى ما زال صدأ صداقته يعلو عيني؟

لا يعرفني.

« – ما أعظم أن يكون لي صديق مثلك».

ابتسم. يرى في عيني الحب والمودة.

آه، لو خيروني الآن بين النعيم أو إظهار شعوري نحوه. اخترت أن أحرقه بكراهيتي.

ولكن ها أنا ذا أبتسم.

لم لا يظهر كرهي له، لم لا يبدو احتقاري له؟

هل لأنني لم أعد أهتم بنعيم أو جحيم؟؟

* * *

أنظر إلى عيني في المرآة كلما تحدث إليّ. أنت يا كائن المرآة، أنت فقط وغيرك باطل، يتحدث وأنظر أنا في المرآة. ألا يرى ما في هاتين العينين؟

ألا يشعر بلمعان اللون الذهبي فيهما؟

* * *

« – ألن تأتي معنا؟ الأصدقاء كثيرون. هيا معي إلى الحياة».

أي حياة أيها التافه؟

(أحياته أم حياتي)؟

« – أعرف أنك تريد أن تأتي. هيا لقد استأنسنا الإنسان منذ زمن بعيد. هيا إن الحياة هناك».

«– ستفقد عينيك ذات يوم».

تظن نفسك تفهم.

تتكلم وكأنك تعرف.

أنظر إليك. أحتقرك.

* * *

هذا بعد؟ تحيا وتستمتع. ما كل هذه القدرة على الحياة. من أين تأتي بها؟

ما هذا الانسجام التام بها ومعها؟

ثم ...

ما ارتعاش صوتك في صلاتك؟

أأنت تعرف إله؟

«لا مناقشات في الدين».

إذن أنت خائف. أيها الغبي. قد يعبد الجماد إلهه بتلقائية أقل ما كل هذه اليقينية؟ من أين تأتي بها؟ أين عقلك؟ أين شرارة الإله داخلك.

* * *

حتى انسجامك مع عفن الحياة، مع شرورها. أترى أأنت الإنسان الكامل؟

أكمالك يا آدم كان في سقوطك؟

– لو لم يخطئ قوم لأتى الله .....

* * *

تنظر إليها والشهوة في عينيك تغمر حجرتنا الصغيرة.

«ألا تجرب»؟

تنظر إليّ مشجعًا.

«هيا».

لا يمنعني شيئًا سوى قرفي منك أنت، فهي غير موجودة.

تحترمني؟

ألم أقل لك إنك غبي؟!

* * *

الكره.

نعم للكره ضياؤه، الذي يخلصني من كل تلك العلاقات المسماة بالإنسانية.

* * *

رسائلك لأهلك ...

أبي العزيز وأمي ست الكل.

تضحك وتقول لي اللعنة عليهم لم يرسلوا النقود حتى الآن.

رسائلي لأهلي ..

لم يعد عندي شيء.

انقطع الحوار.

تؤمن بي كقديس، وتناديني بالملحد.

* * *

أيها الغبي ماذا تعرف عن إله قطع إلى أشلاء؟

ماذا تعرف عن إله سحابي الوجه؟

ماذا تعرف عن شاعر قمره متكسر بين الأغصان؟

عن رسام وجوهه برتقالية الألوان؟

ماذا تعرف عن ...

وتظن نفسك أنك تعرفَ.

* * *

تتكلم وتظن أن لكلامك معنى.

تتكلم وتظن أنك تتكلم عن الحياة (أي حياة).

وأنصت.

«أن الصديق من يحسن الاستماع».

وأنصت.

تتكلم عن امرأة حامل قد أجهضت. عن قمح قد ندر. عن طائرة قد خطفت.

وأنصت.

عن شجارك مع زميل.

عن معاكستك لفتاة.

تظن أنها الحياة أي عذاب هذا؟

* * *

أنظر إلى الناس وأستعجب. أما زلتم تعيشون أما زلتم تعيشون رغم كل انفجارات عوالمي.

ينظر إلى كائن المرأة ويستعجب .. أما زلت أنت تعيش؟

* * *

« – تفهمني دائمًا. ما أروعك».

« – أفهمك أليس كذلك»؟

أتظن لأني أفهمك أنك أيضًا تفهمني.

« – ما أجمل الصداقة. أعرف ما تفكر به دون أن تنطق».

ابتسم. لا ترى مني غير الابتسام.

تكفيني تلك العوالم التي أحطمها ولا يسمع ضجيجها إلاي.

* * *

ورغم أنك ..

ورغم أني ..

إلا أنك أصبحت تحت سيطرة كياني التابوتي البارد ..

وأَرثى لحالك.

* * *

ما زلتَ تتكلم.

وما زلتُ أبتسم.

* * *

تقول رغم اختلافنا لا تستطيع أن تتخيل الحياة بدوني.

نعم رغم اختلافنا أحتاج إليك، ولكن آن الأوان لكي أتغلب على احتياجي لكرهي لك.

تعيش، تستمتع بحياتك، تتآلف مع الصواب والخطأ، تظن نفسك تفكر، توهم نفسك بأنك تعرف، تحب، تكره، تعبد إلهك، تصلي، تصوم.

الكارثة أنك بكل فراغك وغبائك – أنت والآخرون – أنتم ترثون الأرض ولكم أيضًا الجنة والنعيم.

وأظل أبحث عن إله ويكون مصيري العذاب هنا وهناك.

أنت بكل جهلك للجنة.

وأنا بكل جهلي للنار.

أنت لأنك أخمدت الشرارة.

وأنا لأني احترقت بها.

ولكن لا. تصرخ الأكوان داخلي. بكل نار حقدي ستكون مخلدًا في النار.

ستأكلك، تحرقك، تعذبك أنت والآخرين.

أنا مصيري النار ولكن لن أتركك أنت – يا صديقي – للنعيم.

إلهك بقوانينه سيدخلك النار.

أتظن أنك تفكر. أنت عاقل. إذن حاول أن تتخلص مني.

يوم معرفتي لك أضاء كرهي العالم بدمار نار جهنم.

لن تطمع في المغفرة.

وهل ينال العفو منتحر أثيم؟

(يبتسم كائن المرآة).

سأقتلك وسأجعلك خالدًا في جحيمك. بإيمانك بقوانين حياتك.

لقد تمكنت منك، (وتظن أنك الأقوى).

سأراقبك وأراك وقد تمكنت أفكاري منك.

ستنتحر وستخلد في العذاب.

وسأبتسم.

* * *

عام كامل وأنا أخطط لهذه اللحظة. عام كامل منذ أن عرفت حقيقتك وحقيقتي وأنا أخلق لك عالمًا يدفعك إلى الانتحار، وأنت يا مسكين (ها أنا ذا أرثي لحالك) تنقاد بكل فكرك الفقير لي.

– موعدنا الساعة –.

تظن أنك تستطيع محاورتي، إذن فلنتحاور.

قادر على الحياة، ها أنا ذا أغلفها لك بلا جدواها.

أقذف الرعب في قلبك أغرقك في الطوفان.

الموت والانتحار، أجعلك تظن أني سأنتحر.

(أيها الغبي، أتظن أني سأنتحر وأتركك تتمتع).

آه. يرث الأرض الخنازير.

وبكل قدرتك اليقينية تؤمن بأفكاري ... وعقلك؟

أظل أكلمك عن الموت، عن الانتحار.

أراك متصدعًا. ما زلت أتكلم: الموت.

بعدي ينتهي العالم.

مسلوب الإرادة في الميلاد، الممات لا.

كم من عباقرة أنهوا حياتهم بالانتحار.

إن عظمة الحياة أنها تركت لنا مفتاح النهاية بأيدينا.

إنه الحنين: الجسد للأرض والروح للسماء.

وها أنا ذا أتكلم، أتكلم ولكنك لا تعرف الابتسام.

ظننت أنك بعيدٌ عن عالمي، لقد غرقت فيه.

* * *

نعم اللحظة موعدنا. نعم إنه اليوم الذي سيطرت فيه عليك فكرة الانتحار.

انظر مرة أخرى إلى المرآة، وأرى كائن المرآة بعينيه الشيطانيتين.

سأستمتع بكل لحظة وأنا أراقبك وأنت تنتحر. نعم لقد هيأت كل شيء وسأجلس على الكرسي الصغير في هذا الجانب المظلم من الحجرة وسأشاهد كل خلجاتك وحركاتك. ها هو الحبل معلق!

سأشاهدك وكأنها رواية حية على المسرح.

* * *

– والنجم إذا هوى –.

* * *

ستفتح الباب هكذا وتفاجأ بالحبل المدلى. سيرتطم الباب خلفك من تيار الهواء، سيذكرك الصوت بإغلاق القبر، سيهز تيار الهواء الحبل ويأتي محملاً برائحة القرنفل التي جعلتها تذكرك بالموت. سيجعلك تيار الهواء ترتعش دون أن تشعر. سترى صورتك في المرآة ورأسك وكأن الحبل يلتف عليها. سترى الأنوار – نور الإعلان الكبير المواجه لنا – المختلفة الألوان تنعكس على وجهك. ستحس بكل جسدك يعرق. سترى المقعد الصغير تحت الحبل تمامًا. لا لن تحاول أن تراني فأنا قابع في ركني المظلم أشاهد وأستمتع. وبلا إرادة وكأن أحدًا يسحبك. ستقف فوق المقعد – ما زلت ترى نفسك في المرآة والألوان – هذا اللون الأحمر الشيطاني يليه هذا الأزرق البارد برودة الموتى، ثم لحظة ظلام تكاد لا تحس.

تحس يدك وهي تمسك بالحبل. يلامس الحبل شعر رأسك، تحس به يمر بطيئًا على شعرك، تحس بخشونته على رقبتك.

تحاول أن تتذكر الله – لا – الأحمر، الأزرق، الأسود.

تحاول، تحاول.

ترتعش عضلات قدمك اليمنى – يزداد العرق.

تحس بعضلات قدمك اليمنى وهي تدفع المقعد ببطء.

وما زالت الألوان – أحمر، أزرق، أسود.

ببطء تدفع المقعد، كل ملابسك غارقة في عرقك.

ستحس بقدمك اليمنى وهي تبتعد عن المقعد، تحس بقدمك الأخرى وهي تفارقه.

جسدك وهو يشتعل بثقله.

تلك الحرارة المتولدة من احتكاك الحبل بجلدك.

جسدك وهو معلق وصدى ارتطام المقعد بالأرض ....

نصف وجه

هو:

أتى الساعي بالقهوة ووضعها جانبه. تصفح الملف الموضوع أمامه. دخل زميله في العمل ملقيًا تحية الصباح. وقّع على أول ورقة. ظهر له نصف الوجه ثم هرب سريعًا.

قرأ الورقة الثانية. نادى زميله يستشيره في أمر هذه الورقة. قفز نصف الوجه أمامه ثانية ثم تلاشى ببطء.

نصف وجه. أي وجه هذا؟

«آه» قالها بصوت عال وضحك.

صاحبة النصف وجه جارته.

نصف وجه كل ما يعرفه عنها. نصف وجه يظهر من نافذتها. النصف الآخر دائمًا مختفي وراء الخصاص.

نصف وجه يظهر أحيانًا باستحياء، أحيانًا بتحدٍ أحيانًا ببطء وأحيانًا بسرعة.

يذكره نور سماوي سرمدي أحيانًا أو محاط بغيوم مبهمة محملة بجزع مجهول، ولكن دائمًا نصف وجه.

أول مرة يفكر في هذا النصف وجه.

قفز النصف وجه أمامه مرة أخرى. أصابته الدهشة فهذه أول مرة يفكر فيه منذ أن رآه.

رآه مرات بلا حصر حاول أن يتذكر ملامحه. ضاعت الملامح تمامًا.

العينان لونهما؟ يغوص اللون في النسيان. غامق؟ فاتح؟

أسود، أزرق، قال «ربما أحمر» وضحك.

قرر أن يتناساه. قلب الصفحة، قرأ السطر الأول.

أصفر، شعرها أصفر، أنا متذكر تمامًا.

اختفى نصف الوجه قبل أن يظهر وضاع منه يقينه.

ربما كستنائي اللون.

ترك الملف. لا بد أن أتذكر. اختلطت الألوان والملامح. ظهرت أمه، أخواته صديقاته خليلاته.

اللعنة لا بد أن أعرف.

«سأخذ اليوم إجازة» قال وهو يهب واقفًا.

«لم؟» سأله زميله بدهشة.

هم أن يحكي له عن مشكلته مع نصف الوجه ولكنه تراجع مكتفيًا بهز كتفيه.

أول ما لمحه عندما دخل شارعه ودون أن يتعمد ذلك كان نافذتها. كالعادة نصف الخصاص مغلق و ... نصف الوجه.

لم يستطع أن يتبينه من هذا البعد. اقترب وكأنه يكتشف عالمًا جديدًا.

نعم رأيت هذا الوجه عدة مرات وها أنا ذا أشاهده لأول مرة.

اقترب أكثر. يحملق في نصف الوجه محاولاً أن يحفظ تفاصيل ملامحه.

الشعر لونه كذا، الفم شكله كذا .. العين .. كذا.

أخذ يردد هذه الجملة كي لا ينساها.

الشعر ... الفم ... العين .. الـ .. الـ .. الـ ..

دخل بيته المقابل لبيتها فتح باب الشقة وجرى إلى مكتبه ليدون تلك المعلومات.

نصف وجه .. العين .. الفم .. الشعر .. الـ .

قرأها بعناية .. نعم تمامًا.

فتح النافذة. رأى النصف وجه ما زالت تنظر. تراه دون شك. تُرى أكل هذه المدة كانت تقف له هو دون أن يشعر؟

ثم لو نصف وجه لا بد أن تظهر وجه كامل في وقت من الأوقات.

تحداها. لن يدخل، سيظل ينظر إليها إلى أن تريه نفسها كاملة.

ساعة، اثنتان، ثلاثة، نصف وجه.

أحس بالجوع دخل ليأكل وعاد سريعًا إلى النافذة .. اختفى نصف الوجه.

قرر أن ينساها بالغًا يأسه وتحديه، ولكن في الليل لم ير سوى حلمًا واحدًا يتكرر، رأى نفسه يشق نصفين طوليًا. نصف جسده يأخذه ناس لا يعرفهم ليخبأوه في قمقم صغير والنصف الآخر يتحول لهلال ثم يتلاشى.

وعندما استيقظ جرى للنافذة. نصف الوجه مبتسم. ابتسم هو الآخر.

دقق النظر جيدًا لم يعد يعرف هل نصف الوجه مبتسمٌ

اكتشف أنه صعب جدًّا عليه أن يحكم على نصف الوجه.

كل التلقائية التي كان يتذكر بها المرات التي رأى فيها نصف الوجه هذا ضاعت.

كلما ازداد تأملاً له ازداد ضياعًا في معرفته والقبض على تفاصيله.

أصبحت حياته كلها دائرة حول النصف وجه. ذاهبًا إلى العمل، راجعًا منه.

أمسيات الليل في نافذته وفي القهوة تحت البيت.

كأن حياته كلها معلقة على نصف الوجه هذا.

واجه نفسه يومًا «هل أحبها»؟ ضحك «قصدي هل أحب نصف وجهًا؟ لا أظن ولكني مرتبط به فقط».

أخذ إجازة من عمله وأغلق الخصاص وراقبها من ورائه عله يرى وجهًا كاملاً.

ولكن لم يتخل نصف الوجه على حذره.

حقًّا أم أنه يتخيل هذا.

نصف وجه دائمًا.

عاند فعاند نصف الوجه.

لو كانت تغريني لكي أحبها فأنا أعاند.

عاند ليوم كامل لم يفتح الخصاص ولم يرفع عينه للنافذة في الذهاب والرجوع.

لم يعد للقهوة.

سأظل أعاند إلى الأبد ولكنه وجد نفسه متجهًا لبيتها وهو لا يعرف السبب.

وعند باب شقتها استدار قائلاً.

«لا سأعاند دائمًا».

* * *

هي

أيقظها النور كعادته. جاء فارًا متسللاً من فراغات الخصاص النور يدغدغها.

«أن استيقظي» تمطعت بدلال. أحسست بدفء جسدها تحت الغطاء.

تأتي كعادتك أيها النور وأنا اليوم كيف سأكون؟

أحيانًا تصحو وكأنها تنتظر العاصفة الآتية من غياهب البعد وأحيانًا تصحو وكأنها تنتظر نسائم الكون راقصة بهز الستائر. تسكن أحيانًا لضجيج الشارع فارة من أصوات العصافير والشجر. تحن لغناء شجي.

أي كون سأكونه اليوم؟

قفزت من سريرها بنشاط. فتحت النافذة والخصاص.

السماء توحي بجديد.

رأت خصاص نافذته كالعادة مفتوحًا والنافذة مغلقة.

تراه منذ أن سكن أمامها. تراه كل يوم، ذاهبًا إلى عمله، راجعًا منه، جالسًا في المقهى، تراه وحيدًا في بيته يقرأ كتابًا، يشاهد التليفزيون.

تعرفه كله. تعرف ألوانه المفضلة، طريقة ترتيبه للمائدة والمكتب، طريقة لبسه.

تعرف ما يعجبه في برامج التلفزيون، تعرف متى يمل كتابًا يقرأه، ومتى سيلقيه بإهمال.

تعرف ما يغني في بيته، طبقة صوته ونبرته.

بل إنها تعرفه عاريًا رأته ذات مرة خارجًا من الحمام ناسيًا أن النافذة والخصاص مفتوحان.

اليوم سأنتظره باسترخاء.

جلست وراء نافذتها تنظر إلى الشارع الخصاص يغطي نصف وجها.

أمسكت بالكتاب الموضوع جانبها على المنضدة الصغيرة. كان يقرأ هذا الكتاب. أمس. استطاعت كعادتها أن تقرأ اسم الكتاب من بعيد. تعرف النسخة والطبعة. قرأته. تعرف في أي صفحة توقف. تعرف متى سيضعه على الرف بعناية أيهما الكتاب؟ ضحكت.

أي كتاب يا آلام من دنيا؟

من أول يوم حلمت به رأت طائرًا جميلاً يطير حولها مشعًا بجمال باهر الضوء.

مرفرفًا ببهجة ووجل ولكن عندما يحط على يدها يتحول إلى طائر من ذهب.

تغسل دموعها ولكنه يظل طائرًا من ذهب.

«اليوم سيأتي مبكرًا، أعرف».

رأته أتيًا من أول الشارع.

تعرف أنه رآها، يحاول أن يحدد ملامحها.

يهرول يكاد يجري.

يدخل شقته «أعرف أنه يراقبني. تبتسم».

سيظل هكذا. يوم اثنان ثلاثة.

يغلق الخصاص «يحاول أن يعرفني كما عرفته. يراقبني من وراء خصاصه المغلق».

مستيقظًا من نومه، ذاهبًا إلى عمله، جالسًا في المقهى.

«عيونك معلقة هناك». تضحك.

تعرف أنه سيتناساها ولكنها تعرف سطوة روحها عليه الآن.

تعرف أنه سيتساءل هل يحبها.

قالت «سيعاند» يذهب إلى عمله ويرجع منه دون أن ينظر إليها.

أغمض عينيه.

قالت «سيأتي».

رأته ينزل من بيته يعبر الشارع يدخل بيتها.

أيدق قلبها؟

درجات السلم، درجة ودقة قلب.

تنتظر ترى ظله من خلال زجاج الباب الخشن. شبحًا مشوهًا. يخيفها منظره.

«لن تطرق الباب».

استدار عائدًا.

هدأ قلبها وجرت إلى النافذة لتراقبه بنصف وجه.

ابنة الأنوار

في لحظة عشق خُلقت، مع السرمد تكونت من ضياء الروح ونثارها ابنة الأنوار رائعة الحسن مبهرة الجمال. سحر الكون ببهائها. تركها تمرح بين لانهائياته.

تركب الأفلاك، تخترق المجرات. إنها كمال الكون الناقص.

ابنة الأنوار نثار الروح تذوب الشمس في نورها. يضيء الغيهب بها.

تحتوي الكون فيحتويها. تهبه النور فيضيئها.

بلا زمن في الفضاء يا ابنة الأنوار.

وهناك في طرف اللانهاية في إحدى نزاهتها الكونية رأت كوكب الأرض. أحبته فجذبه سحره ببهائها. جاءها مستسلمًا راكعًا مسبحًا.

«فناءي فيك خلود يا ابنة الأنور».

نزلت من لا مكانها وتخلت عن لا زمانها إلى بلدة صغيرة على كوكب الأرض.

كائنات رهيفة تبدو محبة.

بلدة أهلها بشر بسطاء راقبتهم بدهشة.

لبست جلودهم ثوبًا، نطقت كلماتهم لغة.

اهتز الكون رعبًا.

لا يا ابنة الأنوار البشر لا يفهمون.

حذرها الفضاء.

البشر خواء البشر لا يدركون.

حذرها القمر.

البشر جماد، البشر لا يعرفون.

حذرها الشجر.

البشر سكون، البشر لا يفهمون.

حذرتها الأرض.

البشر موت، البشر لا يشعرون.

ومن قلب النور انداحت الكلمات «يا ابنتي نور البشر ظلام. فاحذري».

يأتي الرد ساحرًا دافئًا.

أراهم يحبون، يعشقون، أراهم حياة. سأعيش بينهم لأعرفهم.

صممت.

الآن ثوبي – هذا الثقيل – هو جلدهم.

الآن كلماتي – تلك القيود – هي لغتهم.

وظهرت لهم كأنسية رائعة الحسن والجمال.

أخذتهم المفاجأة لمقدم هذه الغريبة الجميلة ولكن من يستطيع أن يقاوم حب تلك الأنسية التي تشرق ليلاً قبل الصباح التي إذا تكلمت ذاب الكون رقة ومحبة، التي إذا أتت بحركة تراقصت الكائنات ضياء.

لم يسألوها من أين جاءت؟ ولم يعد لهم حديث إلا عنها هي لم يسألوها من هي لم يسمونها. فقط يقولون «هي». «وهي» لا تسمى ومن قادر على أن يسميها «هي».

أصبحت البلدة عطرًا من نور ونغمة من محبة.

أحبها الرجال والنساء.

أحبها الأطفال والشيوخ.

بنوا لها بيتًا أبيض اللون وزرعوا حوله الحدائق الغَناء.

إذا استيقظت أحسوا بالشروق قبل نور الشمس.

وإذا نامت فالكون سكون.

هي ...

هي ...

هي ...

إلى آخر المدى هي.

إلى آخر الزمان هي.

أما «هي» رائعة الحسن باهرة الجمال ابنة الأنوار هالها ما رأت البشر كائنات الحب.

الحق معي.

البشر كائنات العشق.

الحق معي.

البشر كائنات النور.

أنا منهم وهم مني.

احتوت الفضاء: يا فضاء أنت الخواء.

لمست القمر: «يا قمر أنت الجماد».

تشابكت بالشجر: «يا شجر أنت السكون».

قبضت الأرض بيدها: «يا أرض أنت الموت».

ارتج الكون.

«لا! البشر لا يا ابنة الأنوار».

«للبشر النور».

وفي لحظة عشق كلحظة خلقها قررت أن تخلع عنها أثوابها لتظهر للبشر على حقيقتها.

«أنا النور – الكل أنا – يجب أن يراني البشر على حقيقتي».

قررت أن تنضو عنها ستارًا كل يوم حتى لا تحرق البشر بنورها فجأة، حتى يعتادوا على نورها وبهائه.

يوم.

يومان.

ثلاثة.

يزداد نورها وجمالها ... والبشر مسحورون.

ولكن ... النور يحمل ظلامًا.

آه.

النظرات تتبدل.

نظرات الرجال.

ماذا ترى في أعين الرجال.

لم يحضرون الآن لها فرادى.

ترى النار في عيونهم الشهوة الرغبة.

يغتصبونها بأعينهم.

يحاولون ضمها لمسها.

آه.

والنساء ونظراتهن.

النار في عيونهن الحقد والغيرة.

يلتهمون سيرتها بألسنتهن.

آه.

والأطفال والشيوخ.

النور أعمى عيون الأطفال.

النور أوقف قلوب الشيوخ.

«كفى» صاح الكون.

«لا! أنا لا أفهم. ابنة الأنوار أنا، النور هو الحب».

«كفى» صاح الكون.

«لا البشر يحبون، البشر يعشقون، البشر يفهمون».

ولكن ما هذا الضجيج حول بيتها.

«الزانية».

تخترق الفضاء صرخة.

«ارجموا الزانية».

«الفاجرة».

«العاهرة».

يلتفون حول بيتها – بيتها الذي بنوه بروحهم.

«أيها الفاجرة».

«ارحلي».

«اخرجي لنا».

تنظر من النافذة.

الرجال يحملون المشاعل والحجارة والنساء متشحات بالسواد يرتجون من الكره والحقد والقسوة «ارجموا الزانية».

«نكرهك».

تجرحها الكلمات، ولكنها لا تهاب النار ولا تخافهم ولكن يقتلها الكره.

تبكي.

«نوري لا يمحو كرههم».

تخاطبها الكائنات.

«ألم نقل لك أن البشر لا يفهمون».

تبكي.

تبكي.

«ألم نقل لك أن البشر لا يفهمون. قليل من النور أظهر غبائهم وحقدهم وكرههم».

«لا سأظهر لهم كما أنا الآن لم يعد شيء يهم».

«لا لا تتخلي عن كونك يا ابنة الأنوار. البشر كائنات لا تهم ارجعي لنا اتركيهم».

«لا لا تتجلي لهم الآن».

«الآن».

خرجت من بيتها فجأة، فصمت الجميع مبهورًا.

«لماذا؟ سألتهم».

«زانية» رموها بأول حجر.

رموها بالمشاعل والأحجار.

الآن.

شق الكون صرخة.

«حذار» صاح الكون «كرههم قاتلك ونورك قاتلهم».

ولكنها رمت عنها كل الجلود فجأة.

انفجر الكون ذرات وانتثرت الذرات ثرى.

وانمحت البلدة في الوجود.

وبكى الكون كله – بفضائه وقمره وبشجره وأرضه – ابنة الأنوار.

رائعة الحسن، مبهرة الجمال ضياء الروح ونثارها.

لعبة الشائب

كانوا ثلاثة. رجلان وامرأة. جلسوا ينظرون إلى بعضهم البعض وهم لا يدركون ماذا يفعلون، انخبطت إحدى درفتي النافذة. إنه الشتاء والبحر يهدد – بعظمة – كل من يقترب منه. الشتاء وبيت الشاطئ.

قالت المرأة: يبدو أنه يوم غير مناسب لمجيئنا.

أحسا بحرجها لكن ابتسامتها الحرجة خففت التوتر قليلاً.

ورد أحدهما وهو مصر على تجاهل صوت الريح: «لا أبدًا. اليوم سيكون جميلاً سيكون لنا».

فقال الآخر «على الأقل لكي نتذكر الآخرين».

انخبطت درفة النافذة مرة أخرى.

«سأذهب لأغلقه» قالت المرأة في محاولة للهرب من تقاذف النظرات بينهم، ولكنها جلست مرة أخرى وكأنها نسيت أمر النافذة تمامًا.

«لم يعد لنا – نحن الثلاثة – إلا أن نأتي ونتذكرهم».

«بقايا شلة».

ضحكوا جميعًا من خلال الكسوف الضبابي المناسب لهذا الوقت من العام.

قام أحد الرجلين ووقف ينظر إلى البحر الهائج. تبعه الآخران – الرجل والمرأة بعينيهما.

«الحديقة تكاد تموت. لقد حرق البرد الورد، ورمال الشاطئ تغطي العشب».

قامت المرأة ووقفت بجانبه تنظر إلى البحر والحديقة المحتضرة. رفعت كتفيها ثم أسقطتهما بإهمال وهي تقول.

«هكذا دائمًا».

نظر إليها الرجل الجالس تأملها ثم تأمل الرجل بجانبها، سمع أصواتًا وضحكًا ورأى الكل مجتمعين ... هذا يشوي اللحم، هذه تقرأ الشعر، آخران يلعبان الكرة. اثنتان مشغولتان بإبر وخيط يدخل رجل ويشد الإبر منهما، تقوما لتضرباه.

«نحن ....».

لم يكمل الجملة. أحس أنه لا داعي أن يذكرهم برحيل الآخرين. ثلاثة بقينا ماذا يربطنا، بقايا ماضي.

من تزوج واختفى. من ارتحل للعمل، من سافر بلا هدى.

أراد أن يتكلم ثانية.

«نحن ....».

قاطعه خبط درفة النافذة وصوت الريح لم يعد يأبه أن يكمل.

«سأذهب لعمل شاي لنا».

هرولت المرأة إلى المطبخ ولكنها قبل أن تدخل وقفت وكأنها تذكرت شيئًا ثم أخذت إحدى الوسائد وقذفت بها في وجه الرجل بجوار النافذة طارت الوسادة واندفعت خارج النافذة مستقرة في الحديقة.

نظرا إليها في ذهول – ثم وكأنهما اكتشفا أنهما لا بد وأن يضحكا تركا نفسيهما يرددان ضحكات قديمة صدئة.

احمر وجهها وقالت طظ .. سأضع لكم السم في الشاي بدلاً من الشكر.

ودخلت دون أن تنظر إليهما.

ترك الرجلان نفسيهما لتيار الذكريات.

أكانا أكثر تعقلاً؟

«لم نظرة الأسى تلك»؟

«أحس بالخواء».

قالها ناظرًا إلى انعكاس صورته على زجاج النافذة.

«هراء».

أتت المرأة بالشاي.

«هلما نلعب الشائب» قالت وهي تضع صينية الشاي.

«فكرة»!

دبت فيهم الحركة مرة واحدة وكأنهم تلقوا طاقة مفاجئة من مصدر مجهول.

أحدهم يأتي بطاولة اللعب والآخر بأوراق اللعب وهي تضع السكر في أكواب الشاي.

خطفت الورق قائلة «سأوزع أنا الورق».

ابتسم الرجلان وهم أحدهما أن يخطف الورق منها لولا أن كوبًا من الشاي كاد أن يقع فرجع عن محاولته مبتسمًا.

أخرجت الأربع شباب واختارت أحدهم وهمت بوضعه بين الأوراق.

«أريني إياه قبل أن تضعيه».

تأمله ببطء «الشائب القلب».

«ماذا أيعجبك؟» قال الآخر ساخرًا.

«فقط أحس بوحدته بين كل هذه الأوراق».

«أف. لقد جئنا لنستمتع» قالت المرأة وهي تدعي العصبية «أو هكذا قلت لنا لا نريد أن يكلمنا أحد عن هم وغم ووحدة. يا مشوش العقل»!

أكلهم الصمت وهي توزع الورق.

رشف أحدهم رشفة من الشاي.

«شايك هو الاعتدال نفسه. لا يُعلى عليه».

«شكرًا ولا داعي للمجاملات».

اثنان باثنين، ولد بولد، سبعة بسبعة .. وهكذا كل ثنائي ينزل متوحدًا على الطاولة.

تكوم الورق على الطاولة.

«عليك أن تسحب مني».

«لا! ورقي أنا الأكثر عليك أنت أن تسحبي مني».

«أولاً وقبل كل شيء، الحكم غير قابل للنقاش. الملك هو الملك. مهما قال ومهما كان الحكم سينفذ».

«لقد نسيت أن أأتي بسكين لقطع الكعكة» قالت المرأة وهي تسحب إحدى الأوراق.

«عندما يعرف الملك عليه أن يأتي بسكين حتى يكمل الآخران اللعبة».

لفة، اثنتان – تزداد اللفات ويقل الورق.

سيتوج الملك بعد قليل.

«آه أنا الملك» قالها أحد الرجلين بفرحة حقيقية.

«مولاي رغم أنك الملك عليك أن تأتي بالسكين».

«أأكون ملكًا وأنفذ الأوامر».

«حتى نكمل نحن الاثنين الدور».

قام وهو يقول «ملوك آخر زمن».

ذهب إلى المطبخ وفتح الدرج وأخرج السكين، تُرى من سيكون الشائب؟

ضحك سيكون الوزير هو الجلاد.

تذكر عندما كانوا يلعبون تلك اللعبة – كل الشلة – كانوا يخترعون بعض المهن الأخرى لكثرة عددهم ولكن الثلاثة الذين لا غنى عنهم. الملك. الوزير والشائب.

«أنا الملك».

قالها بصوت عال رن صداه في المطبخ. سمع ضحكهما من الخارج.

خرج حاملاً السكين، صوت الريح جذبه إلى النافذة.

نظر إلى البحر والرمال.

أصابه حسرة وحزن.

«أنا الملك ولم أعد في حاجة إلى أحد».

ذهب إليهما. وبهدوء غرس السكين في قلب الرجل. نظر إليه صديقه بعينين مفتوحتين جدًّا ولكن دونما أي استغراب وبسرعة أخرج السكين من جسد الرجل وغرسها في قلب المرأة. لم تصرخ. نزع السكين ورماها.

أحس بالدم في كل مكان.

قال بحزن «أنا الملك ولم أعد في حاجة إلى أحد».

صائد الظلال

بلدتي أظلمت. غطتها الظلال. بنايات بلا نهاية عالية تحجب الشمس البعض يتذكرها عندما كانت الشمس ما تزال تلهو بأزقتها، تلعب مع الأطفال تختفي خلف البنايات لتظهر ضاحكة ساطعة، عندما كانت تغرقنا بآلاف القطع الذهبية الصغيرة عندما تتسلل بين الأغصان.

أما الآن فالبلدة وكأنها عاشقة للظلام.

بلدتي أظلمت .. متى؟ أضاف أحد مالكي البنايات طابقًا جديدًا فحجبت الشمس عن جاره الذي لم يغفر له، فواجهه قائلاً:

«إذا كنت قد حجبت عني الشمس في الشروق سأحجبها عنك في الغروب» وعلا بناؤه هو الآخر طابقًا جديدًا، حاجبًا الشمس عن جاره القديم وجار جديد. ولم يتنازل الجار الجديد إلا بعد أن بنى هو الآخر طابقًا جديدًا ولم ندر إلا والبلدة تتحول إلى منافسة في زيادة الطوابق. وأصبحت البيوت كالموجة التي تعلو لتهبط مرة أخرى وانسحبت الشمس بهدوء ونسيت اللعب مع الأطفال وازدادت الظلمة ولم نعد نرى أحدنا الآخر إلا بصعوبة. فالشوارع هجرتها الشمس إلا للحظات نادرة وقت الظهيرة وكأنها تريد أن تذكرنا بأيامها الخوالي.

وعندئذ، عند هذه اللحظة أدرك الجميع الخطأ وبزغ لنا الظلام كحياة أبدية بلا مهرب. كنا قد بدأنا نعتادها، أن ننسى اللحظات الماضية الساحرة. لعلنا كنا قد نسيناها فعلاً إلى أن أتى يومًا صائد الظلال إلى بلدتنا من عمق المجهول أتى، وسار مناديًا في الشوارع بصوته الناعم.

«الظلال .. أصطاد.

الظلال .. أصطاد».

التف الناس حوله يسألونه .. مدهوشين .. عن مهنته.

«أي ظلال تلك التي تصطادها؟

«ابتسم وطلب أن نسمح له بتجربة.

«هذه البناية لا نهاية لظلها، هل أصطاد لكم ظلها؟

غير مصدقين، أملين.

«أرحنا من هذا الظلام».

آتت الأصوات من أجوافهم عطشى للنور.

«موافقون .. موافقون».

أشار بيده ليصمتوا ثم قال.

ولكن قبل أن أبدأ لي شرط واحد، شرطي أن أحتفظ بصيدي فلا يطالبني به أحد.

«موافقون وما حاجتنا لظلام».

«إذًا انظروا:

أخرج من جعبته أدوات صغيرة دقيقة لا نعرفها ثم تمتم بكلمات لا نفهمها.

لمس ظل البناية وشهق فانسحب ظل البناية سريعًا مختفيًا في قبضته.

آفاق من طقوسه ونحن مذهولون. أراد البعض أن يكذب ما رآه ولكن صوته أخرسهم.

«الشمس لكم والظل لي».

آفاقنا من ذهولنا والشمس تدغدغ حواسنا. رائعة دافئة ممتعة.

ما أجمل الدفء وما أروع الحياة.

النور أتى ساطعًا لامعًا كاشفًا للحقيقة.

صفقنا، هتفنا، رقصنا.

ما أروع الدفء في صقيع الشتاء.

ما أروع شتاء بلا صقيع.

ثم بدأ الهدير.

خلصنا من الظلال، خلصنا من الظلال.

تردد القول بين المباني عاصفًا بالبلدة.

ابتسم هادئًا.

«طلبكم سهل وبلا ثمن سوى الظلال.

ومن منا يحتاج لظل.

كفانا ظلام وظلال.

خلصنا من الظلال، خلصنا من الظلال.

أتى إلى ظل البناية القريب، أصبحت كلماته أقل وحركاته أسرع، ومع كل شهقة ينسلخ الظل ويهرب ليده.

نهلل، نضحك، نرقص.

لم نعد في حاجة إليها.

وما أجمل الحياة بدفء الشمس.

أنظر إلى البنايات. أتساءل في لحظة سارحًا ترى أسعيدة هي بخلاصها من ظلالها؟

ألمح الحسرة على هياكلها الصلبة. أتراها فقدت شيئًا؟

هنا أيضًا يوجد ظل.

وهنا.

وهنا.

لهذه البناية ظل «لتلك الشجرة ظل».

وكأن كل منهم ينتقم لنفسه من جاره ومن ظلاله ويضحي بظل ممتلكاته.

الكل يجري يتابعه مبهورًا، مبهوتًا.

يهتفون له.

«فليحيا صائد الظلال، فيرفع اسمه لتباركه السماء.

يبتسم في هدوء ويكمل مهمته.

ولكن في لحظة، في يوم.

«قف لا تكمل يا لص الظلال» هكذا تكلم فجأة. كما ظهر فجأة معتوه بلدتنا.

فبلدتنا ككل البلاد لها معتوهها الخاص.

«يا لص الظلال».

لم يسمعوه في البدء من ضجيجهم ولكن صوته علا بطريقة مرعبة غطت على صياحهم ربما لأنه صاح داخلهم، ربما لأنهم أرادوا أن يهزأوا بالمعتوه.

«اخرس».

«العبيط. العبيط».

«أسلبه ظله، أسلبه ظله».

«أو تستطيع أن تصطاد ظلال البشر أيضًا؟».

«تساءلوا وكأنهم عجبوا لهذا السؤال.

أنا أصطاد الظلال .. كل الظلال.

خذ ظله .. خذ ظل هذا المعتوه.

وكان المعتوه يلمح في عيونهم الغدر يحاول الهروب، يجرون وراءه ويمسكون به.

«خذ ظله .. خذ ظله».

يقترب منه صائد الظلال. يصرخ المعتوه «يا لص».

يقترب ويلمس ظله. يحاول المعتوه أن يتخلص منه. أن يتحرك ليحرك ظله عله يهرب ولكن في أقل من لمح البصر وبشهقة سريعة خاطفة اصطاد ظله هو الآخر.

تركوا المعتوه يجري وهو يسب ويلعن.

الجميع يضحك ويهلل وفجأة صاح صبي أبيض طويل القامة أسود الشعر «ما أجمله بلا ظل وما حاجتي أنا أيضًا لظلي فقد مللته يتبعني أو أتبعه خلصني أنا أيضًا من ظلي».

«أواثق أنت؟».

«خلصني الآن».

وفي أقل من طرفة عين وبشهقة صغيرة اختفى الظل.

«وأنا».

«وأنا».

من كل جهة أتت كلمة أنا.

هاج الناس وماجوا و«أنا» لم يعد يريد أحد منا ظله وكان الجميع قد كرهوا ظلالهم فجأة كراهية الموت نفسه.

وصائد الظلال لا ينتهي من عمله.

الظلال تختفي وبلدتنا تنير .. يتغير العالم.

اليوم يوم عيد.

اليوم هو عيد البلدة.

«في كل عام سنحتفل باختفاء كل الظلال من بلدتنا».

سحقًا للظلال.

سحقًا للظلال.

«الحفل اليوم وأنت ضيف الشرف» قالوا لصائد الظلال.

سار قليلاً ثم التفت إليهم قائلاً:

اليوم أتممت لكم طلبكم وآن وقت الرحيل.

«لا»!

مزقت السكون.

«لا لا ترحل».

«دع الرحيل واسكن بيننا».

«بلدتنا الآن أجمل البلاد، بلدة بلا ظلال».

«لا ترحل».

وغالى البعض وعرض عليه الولاية.

«كن معنا نجعلك الوالي».

لا، يجب أن أترككم فما أنا سوى صائد للظلال.

«لا لا ترحل».

ورغم كل التوسلات تركنا ورحل. تركنا مبتسمًا هادئًا.

وأقمنا الأفراح والزينات. وأصبح لبلدتنا يوم عيد رائع كدفء شمس الشتاء.

ولكن في القلب نبضة خوف.

لم أتساءل وهل أعرف؟

وذهب الشتاء ثم الربيع.

وواجهنا الصيف ولم تعد في بلدتنا ظلال.

واجهنا الهجير بلا ظلال.

أنتساءل أين ذهبت الظلال؟

أنتساءل وهل أنت يا شمس؟

هل تبدلت يا شمس؟ أين مرحك ولهوك وأين أحلامك أنسيت أيامك الخوالي؟

وماتت الأطفال واحترقت البيوت في بلدة بلا ظلال.

قصص المجموعة

1- كلمات في الليلة الأخيرة.
2- البورسلين.
3- الجريح.
4- الآن يا غريب.
5- الجلمود.
6- الطوفان.
7- الماء الحرام.
8- الخائنة والعدم.
9- جدار الأمراء.
10-والنجم إذا هوى.
11-نصف وجه.
12-ابنة الأنوار.
13-لعبة الشائب.
14-صائد الظلال.